

الإسلام
بين الشرق والغرب
لعلی عزت بیجوفیتش

ترجمة وإعداد
محمد يوسف عدس
مستشار سابق بهیئة الیونسكو

هذا الكتاب

((علي عزت بيغوفيتش)) ((الإسلام بين الشرق والغرب)) صدر في طبعين وُزِّعَ منهما حتى الآن أكبر من تسعة وعشرين ألف نسخة وهو رقم غير معهود في توزيع الكتب العربية فتوزيع ثلاثة آلاف نسخة من طبعة الكتاب يُعْتَبَرُ نجاحًا ملحوظًا .

عندما ظَهَرَ الكتاب لأول مرة سنة 1994 - وكان لي شَرَفُ ترجمته - أحدث ظهوره وانتشاره هزة إعلامية وثقافية ملحوظة وكان مثار إعجاب ودهشة من الجميع .

انعقدت حوله ندوات في مصر وفي العالم العربي وحظي بتعليقات الصحفيين والكتاب من كلِّ الأطياف الفكرية على نطاق واسع ... ولعلَّ أهم الندوات التي عُقِدَتْ حول الكتاب تلك التي أشرف عليها الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي طالما أوصى بقراءة الكتاب وتدريسه في برامج الدراسات الفلسفية بالجامعات .

وفي ديسمبر من نفس السنة حَصَلَ مُؤَلَّف الكتاب على جائزة الملك فيصل الدولية وحضر إلى القاهرة بهذه المناسبة وإن كان اهتمامه الأكبر التعريف بطبيعة وَسِرُ الإبادة الجماعية التي شَنَّها الصرب على المسلمين في البوسنة واستنهاض طاقات العرب والمسلمين لمساعدة بلاده في وقفِ العدوان الصربي ، وكان هو في ذلك الوقت رئيس جمهورية البوسنة وقائد نضالها المستميت من أجل البقاء ورد العدوان .

ورغم الانتشار الواسع لهذا الكتاب والاستقبال الرائع الذي استقبله به القراء والنقاد إلا أنه كان هناك شعور بأنه كتاب موجَّه لصفوة القراء والمثقفين وأنه يصعب تناوله وفَهْمُهُ من جانب القارئ العادي . وقد شعرت كما شَعَرَ كثير من الأصدقاء أن هذا الكتاب ينطوي على كنوز فكرية ومعرفية وبه طاقة روحية كامنة وأنه لابدَّ من عَمَلٍ شيء لتذليل كل صعوبة حتى يتمكن من قراءته بيسر أكبر عدد من الناس ولا يَخَوِّمُون من فائدته والاستمتاع به ... ومن ثم حَثَّني الأصدقاء دائما على محاولة اختصار الكتاب وإصدار طبعة ميسرة منه ، ولكني - على مدى عَقْدٍ كامل من الزمن - أحجمت عن هذه المحاولة خشية أن ينال التبسيط والاختصار من قيمة الكتاب الفكرية .

ويبدو أنه قد تَجَمَّع لدى الناشر الجريء صاحب الخبرة الواسعة في مجال النشر - وهو الأستاذ حسين عاشور - تَجَمَّعت لديه من الأسباب ومن وراء أصحاب الفكر والنظر ما جَعَلَهُ يُلِحُّ على ضرورة إنجاز مهمة اختصار كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) حتى اقتنعت بوجهة نظره وبدأت أبحث عن منهج أو مقترح لتحقيق هذه المهمة يزيل ما في الكتاب من صعوبات فكرية وعقبات فلسفية ويحتفظ في نفس الوقت بترائه المعرفي وقيمه الفكرية ولا ينتقص أو ينحرف عن الهدف

الذي وَضَعَهُ المؤلف لهذا الكتاب وهو تقديم الإسلام في نقائه وسموه في إطار المقارنة مع الفكر الغربي وحضارته المنشقة على نفسها في صراع عميق بين المادية والإلحاد من جانب الدين المجرد مُتَمَثِّلًا في الكاثوليكية المتطرفة .

محمد يوسف عدس

مستشار سابق بهيئة اليونسكو

مقدمة

كتاب ((علي عزت بيجوفيتش)) (الإسلام بين الشرق والغرب) صدر في طبعين وُزِعَ منهما حتى الآن أكثر من تسعة وعشرين ألف نسخة وهو رقم غير معهود في توزيع الكتب العربية فتوزيع ثلاثة آلاف نسخة من طبعة الكتاب يُعْتَبَرُ نجاحًا ملحوظًا .

عندما ظَهَرَ الكتاب لأول مرة سنة 1994 - وكان لي شرف ترجمته - أُحْدِثَ ظهوره وانتشاره هزّة إعلامية وثقافية ملحوظة وكان مثار إعجاب ودهشة من الجميع .. انعقدت حوله ندوات في مصر وفي العالم العربي وحظي بتعليقات الصحفيين والكتّاب من كلّ الأطياف الفكرية على نطاق واسع .. ولعلّ أهم الندوات التي عُقِدَت حول الكتاب تلك التي أشرف عليها الدكتور عبد الوهّاب المسيري الذي طالما أوصى بقراءة الكتاب وتدريسه في برامج الدراسات الفلسفية بالجامعات . وفي ديسمبر من نفس السنة حَصَلَ مؤلّف الكتاب على جائزة الملك فيصل الدولية وحَضَرَ إلى القاهرة بهذه المناسبة وإن كان اهتمامه الأكبر التعريف بطبيعة سِرِّ الإبادة الجماعية التي شَنَّها الصرب على المسلمين في البوسنة واستنهاض طاقات العرب والمسلمين لمساعدة بلاده في وقف العدوان الصربي ، وكان هو في ذلك الوقت رئيس جمهورية البوسنة وقائد نضالها المستميت من أجل البقاء ورَدَّ العدوان .

ورغم الانتشار لواسع لهذا الكتاب والاستقبال الرائع الذي استقبله به القراء والنقاد إلا أنه كان هناك شعور بأنه كتاب موجّه لصفوة القراء والمثقفين وأنه يصعب تناوله وفَهْمُهُ من جانب القارئ العادي محدود الثقافة . وقد شعرت كما شَعَرَ كثيرٌ من الأصدقاء أنّ هذا الكتاب ينطوي على كنوز فكرية ومعرفية وبه طاقة روحية كامنة وأنه لابدّ من عَمَلٍ شيء لتذليل كل صعوبة حتى يتمكنَ من قراءته بيسر أكبر عدد من الناس ولا يُحَرِّمُون من فائدته والاستمتاع به .

ومن ثَمَّ حَثَّنِي الأصدقاء دائماً على محاولة اختصار الكتاب وإصدار طبعة ميسرة منه ، ولكني - على مدى عقْدٍ كامل من الزمن - أحجمت عن هذه المحاولة خشية أن ينال التبسيط والاختصار من قيمة الكتاب الفكرية .

ويبدو أنه قد تَجَمَّعَ لدى الناشر الجري صاحب الخبرة الواسعة في مجال النشر - وهو الأستاذ حسين عاشور - تجمعت لديه من الأسباب ومن آراء أصحاب الفكر والنظر ما جعله يُلِحُّ على ضرورة إنجاز مهمة اختصار كتاب ((الإسلام بين الشرق والغرب)) حتى اقتنعت بوجهة نظره وبدأت أبحث عن منهج أو مقترح لتحقيق هذه المهمة يزيل ما في الكتاب من صعوبات فكرية وعقبات فلسفية ويحتفظ في نفس الوقت بترائه المعرفي وقيّمته الفكرية ولا ينتقص أو ينحرف عن

الهدف الذي وَضَعَهُ المؤلّف لهذا الكتاب وهو تقديم الإسلام في نقائه وسمّوه في إطار المقارنة مع الفكر الغربي وحضارته المنشقة على نفسها في صراع عميق بين المادية والإلحاد من جانب وبين الدين المجرد مُتَمَثِّلًا في الكاثوليكية المتطرفة .

يشتمل الكتاب الأصليّ على قسمين رئيسيين ، الأول تحت عنوان : (مقدمات - نظرات حول الدين) ، والثاني تحت عنوان : (الإسلام وحدة ثنائية القطب) .

ولأن القسم الأول يحتوي على حشد هائل من الأفكار العلمية والفلسفية والمصطلحات الخاصة التي في فَهْمِها إلى متخصصين أو مثقفين موسوعيين - اخترت سلسلة من المقتبسات الميسرة تنمُّ بإيحاءاتها الأفكار الواردة بهذا القسم وتُقَرِّب القارئ من أسلوب المؤلّف وطريقته في التحليل والوصول إلى النتائج .

وتجدر الإشارة هنا إلى بعض النقاط الهامّة التي أبرزها المؤلّف في هذا القسم وبنّى عليها تحليلاته واستنتاجاته في القسم الثاني :

أولاً : أن الدين كامن في جذور أشياء كثيرة قد نحسب ألا علاقة لها بالدين كالفن والثورة والمذاهب أو الاتجاهات الفلسفية العبثية والعدمية التي تتسم بالإلحاد ، فالإلحاد هؤلاء لا علاقة له بالإلحاد الفلاسفة العقلانيين الذين يُنكرونها الألوهية إنكاراً يقيناً جازماً بينما إلحاد العدمين والعبثيين إلحاد اليأس العاجز كدَح في بحثه عن الله ولكنه لم يَهْتَدِ إليه فتار وتَمَرَّد وظنَّ أن الحياة عَبَثٌ خالية من الهدف ومن الألوهية ومن الأمل ذلك لأنه محجوب مقطوع الصلة بالهداية الإلهية وبالوحي الذي يقول : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون : 115] .

الثانية : أن ((علي عزت بيجوفيتش)) يستخدم مصطلحات خاصة به لا بدّ من التعرّف عليها لفهم ما يقول بطريقة صحيحة وأهم ما يطالعنا من هذه المصطلحات عبارة (الدين المجرد) ويَصِفُ بها الدين عندما يقتصر على الجانب الروحي في الإنسان وعلى الحياة الآخرة مُعْرِضًا عن الاهتمام بالجسد والحياة المادية التي تُشكِّل الجانب الآخر من الإنسان وأبرز مثال عنده على ذلك هو المسيحية الأصلية والكاثوليكية التي تحوَّلت إليها .. أما الإسلام فليس دينًا مجردًا بهذا المعنى الغربي إنما هو (دين وزيادة) ، هو دين ثنائي القطب يضمُّ في إطار وحدته الروح والجسد معًا . حياة الأرض وحياة السماء .. الدين والسياسة والمجتمع في إطار واحد والعبادة فيه لا تقتصر على التأمل والشعائر العبدية الكنسية وإنما تشتمل على كلّ عمل يتوجّه به الإنسان إلى الله ابتداء من أصغر شيء (إزالة حصوة من الطريق) إلى الجهاد لدفع الظلم والعدوان وإقرار العدل .

الثالثة : أن ((عزت بيجوفيتش)) يميز بين الحضارة والثقافة ، ومصدر التمييز بينهما يرجع إلى نشأة الحياة وتطورها في مسارين تاريخيين مختلفين ، فهناك تاريخ للدراما الإنسانية التي بدأت في المرحلة التمهيدية لخلق الإنسان عندما جَمَعَ الله ذرية آدم (على هيئة لا نعلمها) وسألهم : { ألسنت بربكم .. قالوا بلى .. } تطور هذا التاريخ مؤكِّداً انتصار حرية الإنسان ومسئوليته في الأرض .. وينتهي يوم الحساب في الآخرة ، وينطو هذا المسار على ما يُمكنُ تسميته (الوازع الأخلاقي) للتاريخ وهو جوهر الثقافة ، أما الحضارة فهي تاريخ الأشياء (المادية) وتطورها في عالم التقدمات العلمية والتكنولوجية .

والمهم - ونحن نقرأ لعلّي عزت بيجوفيتش - أن نَنبّه إلى أنه يملك مصطلحات جديدة خاصة به ، وقد يستخدم كلمات مألوفة بمفاهيم ومعاني جديدة غير مألوفة أو أكثر تحديداً وتعييناً . ولكي نساعد القارئ على متابعة القراءة يُيسر نوذُ أن نَلْفِتَ النظر إلى الملاحظات الآتية :
- قد نضيف كلمة في السياق بين قوسين لمزيد من الإيضاح دون مساس بسياق المعاني والأفكار الأصلية .

- وجود ثلاثة نقاط متجاورة (...) في السياق تشير إلى كلام محذوف تمثيلاً مع هَدَف الاختصار .

- كلُّ كلام مسبوق بمربع صغير كهذا .. هو تعليق من جانبنا يُقدِّم لفكرة جديدة أو يربط بين فكرة وأخرى لضرورة اقتضاها الموقف .

وختاماً : فإن هذا الكتيب المختصر من كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) محاولة مخرصة لتقديم فكره وفلسفته في إطار موجز مُيسرٍ ، لجمهور عريض من محبّي ((عزت بيجوفيتش)) الذين قرءوا له من قَبْل أو سمعوا عنه خيراً .
ونسأل الله أن يُوفِّقنا إلى ما يحبُّ ويرضَى .

الإسكندرية في 6 رمضان 1425 هـ

19 أكتوبر 2004 م .

محمد يوسف عدس

مستشار سابق بهيئة اليونسكو

عن الإنسان والحياة يقول :

((قضية ((أصل الإنسان)) هي حَجَرُ الزاوية لكل أفكار العالم ، فأَي مناقشة تدور حول كيف ينبغي أن يحيا الإنسان ، تأخذنا إلى الوراثة إلى حيث مسألة (أصل الإنسان) وفي ذلك تناقض الإجابات التي يقدمها كل من الدين والعلم كما هو الشأن في كثير من القضايا)) .

((.. يظل السؤال قائماً : ما هو الإنسان ؟ وهل الإنسان جزء من العالم أو شيء مختلف عنه)) .

((إذا صحَّ أننا نرتفع من خلال المعاناة ونَحْطُ بالاستغراق في المتع ، فذلك لأننا نختلف عن الحيوانات ، إن الإنسان ليس مُفَصَّلاً على طراز ((داروين)) كما أن الكون ليس مُفَصَّلاً على طراز ((نيوتن)))) .

((يشكُّ ((أليكس كاريل)) حتى في قُدرة الإنسان على الفهم الكامل للحياة بداخل الخلية فيقول :

((إنَّ الأساليب التي تستخدمها الأعضاء في بناء نفسها غريبة على العقل البشري .. أكوام من المادة تنبثق من خلية واحدة مفردة ، كأن بيتاً بأكمله يُبنى من طوبة سحرية ، طوبة تقوم تلقائياً بتوليد وحدات أخرى من الطوب .. وتنمو الأعضاء بطريقة تُدَكِّرُنَا بما تفعله الجينات في قصص الأطفال . إنَّ عقولنا تتوه تماماً في العالم الداخلي للأعضاء)) .

إنَّ الحياة معجزة أكثر منها ظاهرة)) .

* جهل الإنسان وتعصُّبه :

.. إذا وجدنا في اكتشاف أثري حجرين موضوعين في نظام معين أو قطعاً لغرض ما ، فإننا جميعاً نستنتج بالتأكيد أن هذا من عمل الإنسان في الزمن القديم ، فإذا وجدنا بالقرب من الحجر جمجمة بشرية أكثر كمالاً وأكثر تعقيداً من الحجر بدرجة لا تقارن ، فإنَّ بعضاً منا لن يفكر أنها من صنَّع كائن واع بل ينظرون إلى هذه الجمجمة الكاملة أو الهيكل الكامل كأنهما قد نشأ بذاتهما أو بالصدفة - هكذا يدون تدخل عقل أو وعي ... أليس في إنكار الإنسان لله هوى بيِّن ؟

إنَّ ضيق أفق الإنسان يتجلَّى أكثر ما يكون في اعتقاده بأنه لا يرى أمامه لغزاً . كأن حكمته هي مجموع علمه وجهله معاً ، إنه جهلٌ ولكن الإنسان غير واع به ، حتى أنه يتقبله باعتباره معرفة في مواجهة أعظم لغزٍ يتصرَّف بعنجهية وغرور ، حتى أنه لا يرى المشكلة . وفي هذا يتجلَّى الحجم الحقيقي لجهل الإنسان وتعصُّبه .

ومن مهام الدين والفن والفلسفة توجيه نظر الإنسان إلى التساؤلات والألغاز والأسرار . وقد يُؤدِّي هذا إلى معرفة ما ، ولكن في أغلب الأحيان يُؤدِّي إلى وعي بجهلنا ، أو إلى تحويل جهلنا الذي لا

نشعر به إلى جَهْلٍ نعرف أنه جَهْلٌ ، وهذا هو الحِطُّ الفاصل بين الجاهل والحكيم ، وأحياناً يكون كلاهما على معرفة قليلة ببعض المسائل ، إلا أنَّ الجاهل - بعكس الحكيم - يأخذ جَهْلَهُ على أنه معرفة ويتصرف بناء على ذلك .. إنه ببساطة أعمى لا يَرى المشكلة وفي حالتنا هو أعمى لا يَرى المعجزة .

لهذا الموقف أحياناً مُعَقِّبات خطيرة في الحياة العملية فعند الجهال ثقةٌ عظيمة بالنفس ، بينما يتصرَّف الحكيم بشكٍّ وحذرٍ كما فَعَلَ ((هاملت)) مما يُعْطِي فريق الجهال ميزة ملحوظة . وهذا وَضْعٌ يختلف عن وَضْعِ التأمل . فلا حاجة للتأمل إذا كان (كل شيء واضحاً) وهذا هو الموقف العقلي لما يُسمُّونه بالإنسان الجماهيري أو بتعبير آخر (الفهلوي) . هذا الصنف من الناس لا يُشْغَلُ عقله بالأسرار والألغاز .. ولا يشعر بالإعجاب والدهشة عندما يواجه المجهول .

فإذا بَرَزَتْ أمامه مشكلة فإنه يُصَنِّفها ويضع لها اسماً ثم يمضي في طريق حياته معتقداً أنه قد حلَّ المشكلة ، ومن هنا جاءت مصطلحات مثل : الغريزة .. (المادة ذات التنظيم الذاتي) .. (شكل مُعَقَّد) .. أو ((مادة شديدة التنظيم) .

(وفي الحقيقة) نحن لا نستطيع تفسير الحياة بالوسائل العلمية فقط ؛ لأن الحياة معجزة كما أنها (ظاهرة) .. والإعجاب والدهشة هما من أعظم أشكال فَهْمِنَا للحياة . في الخلق والإنسان والحرية :

قضية الخلق هي في الحقيقة قضية الحرية الإنسانية ، فإذا قَبَلْنَا فكرة أن الإنسان لا حرية له ، وأن جميع أفعاله محدودة سابقاً .. ففي هذه الحالة لا تكون الألوهية ضرورية لتفسير الكون وفَهْمِهِ ، ولكن إذا سَلَّمْنَا بحرية الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله ، فإننا بذلك نَعْتَرِفُ بوجود الله إِمَّا ضِمْنًا وَإِمَّا صراحة ، فالله وحده هو القادر على أن يخلق مخلوقاً حُرّاً ، فالحرية لا يُمكنُ أن توجد إلا بفعل الخلق .

أي تلاعب بالناس حتى ولو كان في مصلحتهم هو أمر لا إنساني ، أن تفكر بالنيابة عنهم وأن تُحرِّرهم من مسؤولياتهم والتزاماتهم هو أيضاً لا إنساني ، إن نسبة الإنسانية إلينا بجعلنا ملتزمين .. فعندما وَهَبَ الله الحرية للإنسان وأنذره بالعقاب الشديد أَكَّدَ - على أعلى مستوى - قيمة الإنسان كإنسان . فعلينا أن نتبع المثل الأعلى الذي وَضَعَهُ الله لنا : لندع الإنسان يجاهد بنفسه بدلاً من أن نقومَ بعملية نيابة عنه .

بدون الدين وبدون فكرة الجهاد الروحي المتصل للإنسان كما تَقَرَّرَ في (الحديث التمهيدي العلوي) لا يوجد إيمان حقيقي بالإنسان باعتباره قيمة عُليا . بدون ذلك ينتفي الإيمان بإمكانية إنسانية الإنسان ، أو بأنه موجود على الحقيقة .

إن القول بمذهب إنساني مُلْحَد ضَرْبٌ من التناقض ، لأنه إذا انتفى وجودُ الله انتفى بالتالي وجودُ الإنسان ، كما أنه لم يوجد إنسان فإن الإنسانية التي يزعمونها تصبح عبارة بلا مضمون . إن الذي لا يعترف بخلق الإنسان لا يُمكنه أن يفهم المعنى الحقيقي للإنسانية . وحيث أنه افتقد القاعدة الأساسية فإنه سوف يُقلَّص الإنسان إلى مجرد (إنتاج السلع وتوزيعها وفقاً للحاجة) .

(الإنسان نتاج البيئة) هذه المسألة الرئيسية في المذهب المادّي تخدم كنقطة انطلاق لجميع النظريات اللإنسانية التي تتفرع منها : في القانون وفي علم الاجتماع ، وفي ممارسة التلاعب بالبشر التي بلغت ذروتها في عهدِ النازية والستالينية ، وجميع النظريات الأخرى المماثلة في الإغواء والتي تَضَعُ أولوية المجتمع فوق الأفراد ، وتؤكد على التزام الإنسان بخدمة المجتمع .

الثقافة والحضارة :

إلى آخر هذه النظريات - كلها تنتمي إلى هذا المجال . ولا يصح عندنا أن يكون الإنسان خادماً لأي إنسان ، ولا ينبغي أن يُتخذ وسيلة ، بل يجب أن يوضع كل شيء في خدمة الإنسان ، فالإنسان خادم لله فحسب ، وهذا هو المعنى المطلق للإنسانية .

الحضارة في خَلْقِها الدائم لضرورات جديدة وقدرتها على فَرْضِ الحاجة على مَنْ لا حاجة له تُعزِّزُ التبادل المادّي بين الإنسان وبين الطبيعة وتُعْرِى الإنسان بالحياة البرانية على حساب حياته الجوانية . (أُنْتِجْ لِتَرْبَحَ ، وارْبَحْ لِتُبَدِّدَ) هذه سمة في جبلة الحضارة .

أما الثقافة (وفقاً لطبيعتها الدينية) فتتميل إلى التقليل من احتياجات الإنسان أو الحد من درجة إشباعها ، وبهذه الطريقة توسع في آفاق الحرية الجوانية للإنسان . وهذا هو المعنى الحقيقي لأنواع كثيرة من النُسلِكِ وإنكار الذات عرفت في جميع الثقافات ..

فعلى عَكْسِ حكمة الإسلام في (كَبْحِ الرغبات) فإن الحضارة - وهي محكومة بمنطق مضاد - عليها أن ترفع شعاراً مضاداً : (أطلق رغبات جديدة) دائماً وأبداً .

التعليم وحده لا يَرْفَعُ بالناس ولا يجعلهم أفضل مما هم عليه أو أكثر حرية أو أكثر إنسانية . العلم يجعل الناس أكثر قدرة .. أكثر كفاءة ، أكثر نفعاً للمجتمع . وقد بَرَهَنَ التاريخ على أن الرجال المتعلمين والشعوب المتعلمة يُمكنُ التلاعب بهم بل يُمكنُ أن يكونوا أيضاً خُدَّاماً للشر ، ربما أكثر كفاءة من الشعوب المتخلفة .

وتاريخ الإمبريالية سلسلة من القصص الحقيقية لشعوب مَتَحَضَّرَة شَتَّتْ حروبًا ظالمة استنصالية استعبادية ضد شعوب مُتَخَلِّفَة أَقَلَّ تعليمًا كان أكبر ذنبهم أنهم يدافعون عن أنفسهم وحرياتهم . إنَّ المستوى التعليمي المرتفع للغزاة لم يُؤثِّرْ على الأهداف أو الأساليب ، لقد ساعد فقط على كفاءة الغزاة وفَرَضَ الهزيمة على ضحاياهم .

الثقافة الجماهيرية :

.. حلَّ التليفزيون محلَّ الأدب والتفكير ، وبالتالي استطاع أن يُقلِّص النشاط الفكري ، إنه يُقدِّم حلولاً جاهزة لجميع مشكلات الحياة . ويمدُّنا هذا العصر بأمثلة تدلُّنا على أن وسائل الإعلام الجماهيرية للثقافة عندما تحتكرها الحكومة - تستخدمها وسائل لتضليل الجماهير كأشوأ ما يكون التضليل .. فليس هناك حاجة للقوة الغاشمة لحمل الشعب على عَمَلٍ شيء ضد إرادته ، حيث يُمكنُ الوصول إلى ذلك اليوم بطريقة مشروعة ، وذلك بشلَّ إرادة الشعب عن طريق تغذيته بحقائق مغلوطة جاهزة ومكررة ، ومنع الناس من التفكير أو الوصول بأنفسهم إلى أحكامهم الخاصة عن الناس أو الأحداث .

لقد أثبت عِلْمُ النفس الجماهيري كما أَكَّدَت الخبرة أنه من الممكن التأثير على الناس من خلال التكرار المُلِحَّ لإقناعهم بخرافات لا علاقة لها بالواقع ، وتنظر سيكلوجية وسائل الإعلام الجماهيرية إلى التليفزيون على الأخصَّ باعتباره وسيلة - ليس لإخضاع الجانب الواعي في الإنسان فحسب بل الجوانب الغريزية والعاطفية ، بحيث تخلق فيه الشعور بأن الآراء المفروضة عليه هي آراؤه الخاصة .

وتَرَى جميع المجتمعات الشمولية فَرَضَتْها في التليفزيون وتندفع لاستخدامه وهكذا أصبح التليفزيون تهديدًا للحرية الإنسانية ، أكثر خطرًا من البوليس والسجون ومعسكرات الاعتقال السياسي ، وأعتقد أن الأجيال القادمة - ما لم تكن قدرتها على التفكير قد دُمِّرَتْ تمامًا سوف تُصطدم باستشهاد الحيل الحالي المستهدف بدون عائق لتأثير هذه القوة الضارية التي لا رابط لها ، فإذا كانت الدساتير في الماضي تُوضَعُ للحدِّ من سطوة الحكام فإنَّ دستورًا جديدًا سنحتاج إليه لكبح جماح هذا الخطر الجديد الذي يُهدِّد بإقامة عبودية روحية من أسوأ الأنواع .

التقدُّم ضد الإنسان :

في المؤتمر الدولي السابع لعلماء الجريمة الذي انعقد في بلجراد سبتمبر 1973 كان هناك إجماع في الرأي على أن الوقت الراهن يتميز بالتزايد المذهل للجريمة في جميع البلاد . ولتفسير هذا

الوضع اعترف علماء الجريمة الأمريكيون بأن كوكبنا هذا هو محيط من الجانحين فالناس جميعاً بشكل أو بآخر لديهم نزعة الجنوح وأنه لا يوجد أمامنا مخرج من هذه الكارثة .

الدين والثورة :

كلُّ ثورة حقيقية تتميز بسمات (معينة) تشتمل على الإيمان والشعور بالقوة والأهمية والعدوان والرغبة العارمة في التضحية والموت .. كل هذه المشاعر أبعد ما تكون عن المصلحة وأي شخص كان له دور في ثورة أو تابع تطورها عن قُرْبٍ يستطيع أن يؤكّد وجود الملامح الأخلاقية . إنه يرى الثورة كقصيدة ملحمة وليس فقط مجرد تدمير آلي أو تغيير في الآلة الحاكمة ... إذا نظرنا إلى الثورة من الداخل - لا باعتبارها عملية ولكن كجزء من الحياة - فستبدو كالدrama التي تُؤثّر في الناس تأثير الأديان ، أما إذا نُظِرَ إليها من الخارج ، أي من وجهة النظر السياسية الواقعية ، فيمكن أن تتخذ صفةً مختلفةً وهدفاً مختلفاً .

والمجتمع الذي تسيطر عليه مشاعر التضامن والتضحية والمصير المشترك يعتبر في (حالة دينية) .. هذا هو مناخ (الحرارة العاطفية العالية) ، الذي يظهر في حالات الطوارئ (والثورة) ، وفي الاحتفالات الدينية عندما يجمع الناس شعور الأخوة والصداقة . (كذلك) فإن المجتمع العاجز عن التدين هو أيضاً عاجز عن الثورة ، والبلاد التي تمارس الحماس الثوري تمارس نوعاً من المشاعر الدينية الحيّة .. فمشاعر الأخوة والتضامن والعدالة هي مشاعر دينية في صميم جوهرها ، وإنما موجهة في ثورة لتحقيق العدالة على الأرض .

الواجب والمصلحة :

لابدّ أن يكون وجود عالم آخر ممكناً فنحن لا نستطيع أن نعتبر الأبطال المأساويين منهزمين بل منتصرين .. ولكن منتصرين أين ؟ في أي عالم هم منتصرون ؟ أولئك الذين فقدوا أمنهم وحريتهم - بل حياتهم - بأي معنى هم المنتصرون ؟ .. من الواضح أنهم ليسوا منتصرين في هذا العالم .. إنّ حياة هؤلاء الأبطال وتضحياتهم بصفة خاصة تغرينا أن نسأل دائماً السؤال نفسه : هل للوجود الإنساني معنى آخر . معنى مختلف عن هذا المعنى النسبي المحدود . أم أنّ هؤلاء الرجال العظام الشجعان مجرد نماذج فاشلة ؟ ..

إنّ الأخلاق كظاهرة واقعية في الحياة الإنسانية لا يمكن تفسيرها تفسيراً عقلياً ولعلّ في هذا الحجة الأولى والعملية للدين . فالسلوك الأخلاقي إما أنه لا معنى له وإما أنّ له معنى في وجود الله .

التدريب والتنشئة :

تُحدثُ التنشئة تأثيرًا لطيفًا على نفس الإنسان لا يمكن قياسه ، فالتنشئة فاعلية مباشرة تدخل إلى القلب عن طريق الحبِّ والقدوة والتسامح والعقاب ، بقصد إحداث نشاط جَوَّاني في نفس الإنسان . أما التدريب باعتباره حيوانيًا في جوهره فهو نظام من الإجراءات والأعمال تتخذ لفرض سلوك معين على الكائن البشري ، يزعمون أنه السلوك الصحيح . التنشئة تنتمي إلى الإنسان أما التدريب فإنه مصمم من أجل الحيوانات ، بواسطة التعليم يُمكنُ تشكيل المواطنين أذلين يطيعون القانون ليس بوازع من الاحترام بل بدافع من الخوف أو العادة ، وقد يكون ضميرهم ميتًا ومشاعرهم ذابلة ولكنهم لا يخرقون القانون لمجرد أنهم تَدَرَّبوا على ذلك . ونرى في الأدب شخصيات يزعمون أنها لمواطنون طاهري الذيل وهم في الحقيقة مُفَرَّغون من الأخلاق . وشخصيات لأناس خاطئين هم في أعماقهم أخيار ونبلاء . ومن ثمَّ يوجد نوعان من العدالة : عدالة الإنسان والعدالة الإلهية تنظر الأولى إلى الأعمال وتنظر الثانية إلى جوهر الوجود الإنساني .

المساحة الجوانية للإنسان شاسعة تكاد تكون لا نهائية . فهو قادر على أبشع أنواع الجرائم وعلى أنبل التضحيات . وليست عظمة الإنسان أساسه في أعماله الخيرة وإنما في قُدْرته على الاختيار . وكل من يُقَلِّلُ أو يحدُّ من هذه القدرة يحطُّ بقدر الإنسان ، فالخير لا يوجد خارج إرادة الإنسان ولا يُمكنُ فرضه بالقوة { لا إكراه في الدين } .. والقانون نفسه ينطبق أيضًا على الأخلاق . إن التدريب حتى ولو كان يفرض السلوك الصحيح هو في أساسه لا أخلاقي ولا إنساني .

الأخلاق والعقل :

مفهوم الحرية الإنسانية لا ينفصل عن فكرة الأخلاق فبالرغم من تعرُّض هذه الفكرة لنحورات ، ظلَّت الحرية هي (الثابت) عند كلِّ تحوُّل أو تطور خلال تاريخ علم الأخلاق . فمثل ما للمكان والكم من أهمية في علم الطبيعة ، كانت أهمية الحرية بالنسبة لعلم الأخلاق . يُدرِكُ العقل المكان والكم ولكنه لا يفهم الحرية ، وهذا هو الخطُّ الفارق بين العقل والأخلاق .

وظيفة العقل أن تكتشف الطبيعة والآلية ... بمعنى آخر إنَّ العقل يكشفُ نفسَ كل شيء ، ولهذا السبب فإن العقل يدور دائمًا في مكانه . فهو لا يكشف في الطبيعة إلا ذاته .. أعني الآلية .. ومن هنا يأتي التناقض البين في بعض النظريات الأخلاقية التي تُنهي جدلها المُعَقَّد بنتائج مثل أن الغيرية تساوي الأنانية ، وإنكار الذات يساوي اللذة ، وهذا هو التناقض نفسه الذي جعل ((فولتير)) يستخلص رأيه الغامض الشهير : ((تضحية الإنسان بنفسه بوازع من مصلحته الذاتية)) ! .. التحليل المنطقي العقلي للأخلاق يختزلها - ربما لدهشة الملاحظ - إلى طبيعة وأنانية وتضخيم للذات .. يكشف العقل في الطبيعة مبدأ السببية العامة الكلية القدرة ، ويكشف في الإنسان

الطبيعة : الغرائز : ((القوة ذات السنين : اللذة والألم)) التي تؤكّد عبودية الإنسانية وانعدام حريته . إنها آلية التفكير نفسها التي حوّلت الألوهية إلى (السبب الأول) المحرك الذي (لا يتحرك) ، واختزلت الروح إلى نفس ، والفن إلى عملٍ وتكنيك ، إنّ محاولة إقامة الأخلاق على أساس عقلي لا تستطيع أن تتحرّك أبعد ما يُسمّى الأخلاق الاجتماعية ، أو قواعد السلوك اللازمة للمحافظة على جماعة مُعيّنة ، وهي في واقع الأمر نوع من النظام الاجتماعي .

الأخلاق - بسبب ذلك - لا يُمكن القول بأنها نتاج العقل . فالعقل يستطيع أن يختبر العلاقات بين الأشياء ويحدّدُها ، ولكنه لا يستطيع أن يُصدِرَ حُكْمًا قِيَمًا عندما تكون القضية قضية استحسان أو استهجان أخلاقي .

... من المستحيل أن تصل إلى تفرقة علمية دقيقة .. بين الجميل والقبيح .. الطبيعة والعقل على السواء لا يمكنهما التمييز بين الصحّ والخطأ ، بين الخير والشر فهذه الصفات ليست موجودة في الطبيعة .

فماذا يعني الإنسان - كشخصية متفرّدة لا تتكرر - بالنسبة للعلم ؟ لابدّ أن يكون لعالم شيئاً أكثر من علمه ، أن يكون إنساناً لكي يفهم هذه الحقيقة .

إننا جميعاً قد يكون لدينا شعور داخلي مؤكّد بحريتنا ، فهل نستطيع أن نُفسّر أو نُبرهنَ بطريقة علمية على هذا الشعور المؤكّد ولو كان غامضاً يصعب تحديده . جميعنا يوافق على أنه [ليس] من الصواب معاقبة الشخص الذي تسبب صدفة في جريمة [قتل] ؟ ومع ذلك فهذا الموقف المنطقي الواضح لا يمكن تبريره علمياً ، فما يقبله القلب لا يستطيع العلم أن يُبرهنَ عليه أو يُفسّره ، فهل نستنتج القيام بواجبنا الأخلاقي لأن العقل لا يستطيع أن يبرز أو يساند هذا الصوت الجواني ؟ إننا لا نفعلُ هذا ، وإذن فنحن نحفظُ بموقف دون أن نعلم لماذا نحفظُ به رغم أنه ضد عقليتنا ، والسبب هو ثقة نابعة من داخلنا بسبب إيماننا .

تَمْنَحُ البيولوجيا للإنسان التقدّم على حساب روحه ونُبْلِهِ الإنساني .. ويرفض الإنسان التقدّم المتاح إذا كان عليه أن يحصل عليه بوسائل تحطّ من إنسانيته .

هذا النوع من التقدّم عند المسيحيين هو المذهب الشيطاني الطبيعي ، وعند الشعراء (ركام من القسوة المبرمجة) .

التقدّم العلمي مهما كان واضحاً بارزاً لا يمكنه أن يجعل الأخلاق والدين غير ضروريين ، فالعلم لا يعلم الناس كيف يحيون ولا من شأنه أن يقدّم لنا معايير قِيَمِيَّة ، ذلك لأن القِيَمَ التي تَسْمُو بالحياة

الحيوانية إلى مستوى الحياة الإنسانية تبقى مجهولة وغير مفهومة بدون الدين ، فالدين مدخل إلى عِلْم آخر متفوّق على هذا العالم والأخلاق هي معناه .
الأخلاق والدين :

من الممكن أن نتصوّر رجلَ دين لا أخلاق له ، وبالعكس ، فالدين نوع من المعرفة ، والأخلاق هي الحياة التي يحيها الإنسان وفقًا لهذه المعرفة ، وهنا يظهر الاختلاف بين المعرفة والممارسة ، فالدين إجابة على سؤال : كيف تُفكّر وكيف تُؤمّن ؟ بينما الأخلاق إجابة على سؤال : كيف تحكم الرغبة وكيف تهدف أو كيف تَحيا وكيف تتصرّف ؟ ..

تنطوي إلهامات عالم الغيب على مطلب أن نحيا وفقًا لهذه الرؤية الكونية الواسعة للانهاية ومع ذلك فهذا المطلب لا يتطابق مع هذه الرؤية . لقد كانت أخلاقيات المسيح السامية نتيجة مباشرة لوعْي ديني على الدرجة نفسها من القوة والوضوح . ومع ذلك فإن مفتشي التحقيق الذين قاموا بعمليات الاضطهاد الديني كانوا أيضًا مخلصين لعقيدتهم الدينية . ونحن إذ نُؤكّد هذا لا نغفل عما في هذا المسلك من تناقض حاد . اقرأ هذه الآية : { الذين آمنوا وعملوا الصالحات } .. إنها تتكرر بصيغتها أو معناها في القرآن أكثر من خمسين مرة ، كأنما لتؤكد لنا ضرورة توحيد أمرين اعتاد الناس على الفصل بينهما . هذه الآية تُعبّر عن الفرق بين الدين (الإيمان) وبين الأخلاق (عمل الصالحات) كما تأمر في نفس الوقت بضرورة أن يَسِيرَ الاثنان معًا .

كذلك يكشف القرآن لنا عن علاقة أخرى عكسية بين الأخلاق والدين فيوجّه نظرنا إلى أن الممارسة الأخلاقية قد تكون حافزًا قويًا على التدين { لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون } فمعنى الآية هنا لا يقول : (آمِنْ لتصبحَ خَيْرًا) وإنما يقول : (افْعَل الخيرَ تُصْبِحَ مُؤْمِنًا) وفي هذه النقطة نرى إجابة على سؤال كيف يمكن للإنسان أن يُقَوّي إيمانه ؟ .. والإجابة هي : (افْعَل الخيرَ تَجِدَ اللهَ أَمَامَكَ) .

الأخلاق والمصلحة المشتركة :

يقول أصحاب نظرية المصلحة : ((يحبُّ الإنسان مشاعر وانطباعات معينة والأشياء التي تسببها ، ويكره مشاعر وانطباعات أخرى وكلّ ما يسببها ، وبما أنّ الإنسان يعيش في مجتمع فهو محاط بكائنات تشبهه وهي حسّاسة مثله . جميع هذه الكائنات تبحث عن اللغة وجميعها يخشى الألم وقد اصطَلَحوا على ما يُسبّبُ لهم اللذة (خيرًا) وكلّ ما يُسبّبُ لهم الألم (شرًا) .. ويطلقون على كلّ ما فيه نَفْعٌ لهم (فضيلة) وعلى كلّ ما فيه ضَرَرٌ لهم (رذيلة) . ويذهب هو لباح (ديترش فون) إلى أن الضمير هو الوعي بالتأثير المحتمل لسلوكنا على الناس الذين يحيطون بنا وعلينا أيضًا :

والندم إنما هو الخوف الذي نستشعره لمجرد التفكير بأن سلوكنا قد يجعل الناس يكرهونا أو يغضبون منا)) .

هذه النظرية تجعل من الأخلاق مجرد أنانية مهذبة .. مصلحة فرد مفهومة ومقدرة ، إنما يتدخل العقل ليحول هذه الرغبة في اللذة إلى مطلب أخلاقي ، ويفسح الذكاء والذاكرة والرؤية أمام الإنسان ليرى الماضي المستقبل بالإضافة إلى الحاضر .. وهكذا ، لا يُحَفِّز سلوك الإنسان فقط مصلحته الآتية وإنما النهاية السعيدة في طيتها ، وفي ضوء هذه الحسبة يحول الإنسان مشاعر الألم واللذة - وهي حقائق بيولوجيا حيوانية داروينية - إلى مفهومي الخير والشر فالخير والشر ليسا سوى اللذة والألم تضاعفا بالفطنة والتفكير والحساب وهكذا تَنَحَّصِرُ أخلاقيات المنفعة في حدود الطبيعة وَيَنَحْصِرُ بعدها عند أسوار هذا العالم الدنيوي .

الأخلاق ليست مريحة بالمعنى العام لهذه الكلمة فهل نستطيع مثلاً أن نقول : إن الشعار السائد (النساء والأطفال أولاً) مفيد من الناحية الاجتماعية ؟ .. هل من المفيد أن تكون عادلاً أو أن تقول الصدق ؟ ..

إننا نستطيع أن نتصور مواقف عديدة يكون الظلم فيها والكذب هما المفيدان وبالمثل فإن التسامح الديني والسياسي والعِرقي والوطني ليس مفيداً بالمعنى المعتاد للكلمة . أما أن تُدمّر الخصوم فهذا أكثر فائدة من وجهة نظر العقلانية البحتة . ولكن التسامح إذا توافر - فإن ممارسته لا تكون من قبيل المصلحة ، وإنما يكون التسامح بحافز من مبدأ أو باعث إنساني .

إن حماية العجزة والمقعدين أو العناية بالمعوقين والمرضى الذين لا أمل في شفائهم ، كل ذلك ليس من قبيل السعي وراء الفائدة . فالأخلاق لا يمكن أن تخضع لمعايير المنفعة . نعم . قد يكون السلوك الأخلاقي أحياناً مفيداً ، ولكن ليس معنى هذا أن شيئاً قد أصبح أخلاقياً ؛ لأنه أثبت فائدته في فترة ما من فترات الخبرة الإنسانية .

على العكس فهذه الخبرة نادرة الحدوث .

إن الاعتقاد المتفائل بوجود اتساق بين المنفعة من ناحية وبين الصدق والأمانة من ناحية أخرى أثبت أنه اعتقاد ساذج بل وضارّ فله أثر مدمر على نفوس الناس لأنهم يشاهدون عكس ذلك على الدوام .

ولكن الإنسان المستقيم بحق هو الإنسان الذي يُقَدِّمُ على التضحية وإذا واجه الإغراء ثَبَّتَ على إخلاصه للمبادئ لا لمصلحته . ولو كانت الفضيلة مريحة حقاً لتسارع إلى اقتحامها الانتهازيون ليكونوا نماذج للفضيلة .

يُمْكِنُ إقامة أخلاقيات المنفعة على أساس من العقل ولو على المستوى النظري ولكن من المستحيل أن نُقيَمَ على العقل وفي غيبة الألوهية أخلاقيات غَيْرِيَّة لا أُنَانِيَّة أو أخلاقيات تقوم على التضحية كما ينبغي أن تكون الأخلاق .

السلوك باسم الأنانية شيء والسلوك باسم الواجب شيء آخر ، الأول يستند إلى المصلحة والحاجة والنظام والعقل أما الثاني فهو ممكن فقط باسم الله . ص 205

السلوك الجمعي قائم على التنظيم وقد يكون إجرامياً .. والمصلحة المشتركة لا يمكن أن تكون مصلحة جميع البشر ، إنها دائماً مصلحة مجموعة مغلقة قد تكون مجموعة سياسية أو وطنية أو طبقة ..

المصلحة المشتركة لمجموعة من الناس أو الوطن ما قد تستدعي استقلال أو استبعاد بل حتى إبادة أعضاء مجموعة أخرى من البشر أو شعب آخر . والتاريخ الحديث للأمم – وعلى الأخص تاريخ الإمبريالية الاستعمارية – حافل بالأمثلة على أن ما يطلق عليه المصلحة المشتركة يُمكن أن يأخذ شكلاً إجرامياً صريحاً .

* أطلق على الأخلاق النفعية في الكتابات الإنجليزية (أخلاق النتائج) ، بمعنى أن الشيء يكون أخلاقياً أو لا أخلاقياً تبعاً لما يترتب عليه من نتائج حسنة أو سيئة ، ولكن كما رأينا من قبل الأخلاق الأصلية لا تبعاً بالنتائج على الإطلاق إلى حد إنكار الأفعال باعتبار أنها هي التعبير الخارجي للسلوك الإنساني ، فالأخلاق الأصلية يَنْصَبُ اهتمامها فحسب على النية أن تريد وأن تفعل – ذلك أمر إنساني فبالإرادة والعمل ينتهي مجال الأخلاق ، أما النتائج والمعقبات فإنها أمور بيد الله (سبحانه وتعالى) .

الأخلاق بدون إله :

تُقَدِّم لنا الخبرة العملية في عالم الأخلاق كثيراً من الأمثلة على أخلاقية أناس لا يَكْتَرِثُونَ بتعاليم الدين أو لا يؤمنون بالله وليس في الأمر ثبات دائم ، بل يوجد انفصام بين العقيدة الاسمية المعلنة وبين سلوك صاحبها . فهناك أناس مُتَمَسِّكون بالدين تَمَسُّكاً شديداً بل قد يكونون من العاملين في الدعوة الدينية ، ومع ذلك لا تجد سلوكهم يختلف في شيء عن سلوك الماديين العتاة ، والعكس أيضاً صحيح : فهناك أناس كثيرون منسوبون إلى التفكير المادي ومع ذلك يتمتعون بإخلاص شديد ومستعدون للمعاناة بل للنضال من أجل الآخرين ، من هذا التشوش وعدم الثبات تنشأ الكوميديا فَتُخَيَّرُ عقول المفكرين الجادين ، حتى أكثرهم استنارة .

ليست هناك أذن علاقة تلقائية بين عقيدتنا وسلوكنا ، فسلوكنا ليس بالضرورة من اختيارنا الواعي ولا هو قاصر عليه .. إنه على الأرجح نتيجة التنشئة والمواقف التي تشكّلت في مرحلة الطفولة ، أكثر من نتيجة للمعتقدات الفلسفية والسياسية الواعية التي تأتي في مرحلة متأخرة من مراحل الحياة .

فإذا تعلّم شخصٌ ما أن يحترم كبار السنّ وأن يحافظ على كلمته ، وأن يحكم على الناس بصفاتهم وأن يحبّ الآخرين ويساعدهم ، وأن يقول الصدق ، وأن يكره النفاق وأن يكون إنساناً بسيطاً أياً ، إذا نشأ على كل هذه الأخلاق الحميدة فستكون هي صفاته الشخصية ، بصرف النظر عن أفكاره السياسية الأخيرة أو فلسفته الاسمية التي يعتنقها .

هذه الأخلاقيات – إذا نظرنا إليها نظرة تحليلية – مدينة الدين ومنقولة منه .. فقد نقلّ التعليم نظرات وفضائل دينية أصيلة معينه في ما يتصل بالعلاقة بين الإنسان والإنسان ، ولكنه لم ينقل معها الدين الذي هو مصدر هذه الأخلاقيات .

في هذه الحالة توجد خطوة واحدة بين التخلّي عن هذا الدين والتخلّي عن أخلاقياته . بعض الناس لا يُقدّمون على هذه الخطوة ، ومن ثمّ يظلّون (منقسمين) بين دين لا يتبعونه وأخلاقيات هذا الدين التي يستمرّون في اتباعها ، برغم أنهم لا يؤمنون بالأساس الذي أُقيمت عليه هذه الأخلاق . هذا الموقف يَمْنَحُ الفرصة لبروز ظاهرتين تُعقّدان البحث : الملحدون الأخلاقيون ، والمؤمنون الذين لا أخلاق لهم .

* ينتهي ((عزت بيجوفيتش)) من تحليلاته للأوضاع الأخلاقية إلى نتيجتين هامتين : النتيجة الأولى ، هي أن الأخلاق من حيث هي مبدأ لا توجد بلا دين ، بينما الأخلاق العملية يمكن أن توجد في غياب الدين ، فهي توجد – حسب تعبيره – (بحكم القصور الذاتي) ، ومن ثمّ فإنّ أبرز خصائصها أنها واهنة بالغة الوهن ، والسبب عنده أنها قد انفصلت عن المصدر الذي مَنَحَهَا قُوَّتَهَا المبدئية ، ألا وهو الدين .. أما النتيجة الثانية فهي أنه لا يُمكنُ بناء نظام أخلاقي على الإلحاد والمثال على ذلك ما حدّث في النظام الماركسي بالاتحاد السوفيتي ، فلكي يُؤسّس الماركسيون مجتمعاً ويحافظوا على وجوده واستمراره كان عليهم أن يطلبوا من الناس مثاليةً وتضحيةً أكثر مما طَلَبَ أيُّ نبيٍّ من أتباعه باسم الدين .

وفي هذا يقول : ((عزت بيجوفيتش)) : (إنّ الإلحاد إذا وَضِعَ موضع الممارسة ثم حاول بناء مجتمع فإنه يضطر اضطراراً إلى أن يستمدّ بضاعته من الأشكال القائمة للأخلاق الاجتماعية ولكنه لا يملك الوسيلة لحماية المبدأ الأخلاقي أمام هجوم دعاة المنفعة أو الأنانية أو اللا أخلاقية من أي نوع ، فالإلحاد عاجز ومنطقه أشلّ .. لماذا ؟ لأنه فقط لا يستطيع أن يجيب عن سؤال بسيط إذا

كنت سأحيا اليوم فقط وسأموت غداً .. وأتلاشى في التراب إلى الأبد ، بلا قيامة ولا حساب ولا آخره ، فلم لا أعيش اليوم بدون قيود أو التزامات ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ؟ ..
إنما تبقى المعايير الأخلاقية الموروثة فحسب في وعي الناس ، وتحافظ عليها الدولة بدافع الضرورة المحضة ، وفي كلتا الحالتين فإن هذا النظام الأخلاقي الموروث مناقض للأيدلوجية الرسمية ولا يوجد له مكان فيها .

الثقافة والتاريخ

الإنسانية الأولى :

يَعْقُدُ المَادِّيُّونَ أَنَّ التاريخ يسير في خطٍّ مستقيم وأن تطوّر العالم قد بدأ من الصفر ، فالتاريخ يلتزم بحركة متصلة إلى الإمام . ولكن التاريخ عند الماديين هو التطور المادي للحياة البشرية ، فهم معنيون بتاريخ الأشياء أو بتاريخ المجتمع لا بتاريخ الإنسان نفسه ، أما تاريخ الثقافة فلم يبدأ من الصفر ولا يسير في خطٍّ صاعد مستقيم ، فعندما تحرّر المجتمع الإنساني لأول مرة من الطبيعة لم يكن يتميز عن أي قطيع من الحيوانات التي كانت حوله ، ولكنه في اللحظة نفسها اكتشف سمات إنسانية خاصة به ، وقيماً أخلاقية مُعَيَّنَةً يحترار معها العقل . لقد دَخَلَ الإنسانُ التاريخَ برأس مال أخلاقي مبدئي هائل ، لم يرثه من آبائه المزعومين (الحيوانات) ، وقد عَجَزَ العلمُ عن تفسير هذه الظاهرة ، وكان رَفَضُ العلمِ للافتراض الديني هو الذي أعاقه عن فهم هذه الظاهرة .
كانت الأفكار الاجتماعية عند الأديب الروسي ((تولستوي)) مُتَأَثِّرَةً بأوضاع لَمَسَهَا في حياة الفلاحين الروس البسطاء الذين لم تُفْسِدْهُمْ الدنيا بعد ، فهنا وفي كل مكان تسير القيمُ الخلقية والإنسانية جنباً إلى جنبٍ مع المستويات البسيطة من التطوّر المادي والاجتماعي .
في كتاب التاريخ العام لأفريقيا (الذي نَشَرَتْهُ مُنْظَمة اليونسكو) نأتي على حقائق مُثِيرَةٍ عن ثقافة الشعوب البدائية ، فمن المعروف مثلاً أنه في الدول الأفريقية كان جميع الأجانب سواء كانوا بيضاً أو ملونين يتمتعون بكرم الضيافة وبنفس حقوق المواطنين المحليين ، في حين كان الأجنبي في روما القديمة أو في بلاد الإغريق يتحوّل إلى رقيق عندهم . ولعلّ هذه الحقائق وأمثالها هي التي جَعَلَتْ عالماً ألمانياً خبيراً في الدراسات وأمثالها هي التي جَعَلَتْ عالماً ألمانياً خبيراً في الدراسات الإفريقية هو ((ليو فرونيوس)) يقول : ((إِنَّ الأفرقة مُتَحَصِّرونَ حتى النخاع وأنَّ فكرة أنهم برابرة متوحّشون ليست سوى خيال أوربي)) .
أين التحصّر وأين البربرية ؟ ..

يرى ((عزت بيحوفيتش)) في تاريخ القارة الأمريكية وحده أبلغ دليل على سقوط مزاعم الأوروبيين في التحضر والبربرية حيث يقول : ((ألم يكن الأسبان الغزاة المتحضرون هم الذين دَمَرُوا - بأحطِّ الوسائل - التي لم يشهدها التاريخ من قبل - الثقافة الماياوية والأزتية ودَمَرُوا الشعوب نفسها التي كانت تعيش في هذه المناطق ؟ أليس المستوطنون البيض (هل نقول من البلاد المتحضرة ؟ !) هم الذين دَمَرُوا - بطريق منظمة - القبائل الهندية (الهنود الحمر) من السكان المحليين والعشائر التي كَتَبَ عنها (مورجان) (بإعجاب شديد) واستخدموا في ذلك أساليب (بشعة) لم يسبقهم إليها أحد في التاريخ الحديث ؟ ..

الأمريكيون المتحضرون :

كانت الحكومة الأمريكية حتى منتصف القرن التاسع عشر - تدفع مبلغًا من المال يأتي (للسلطات) بفروة رأس أحد الهنود الحمر ، واستمرت تجارة الرقيق الأسود طوال ثلاثة قرون عَبَرُ الأطلنطي جنبًا إلى جنبٍ مع نُمو الحضارة الأوروبية الأمريكية ، كجزء لا يَتَجَزَّأ من هذه الحضارة ، ولم تتوقَّف هذه التجارة الشائنة حتى سنة 1865 . وقَدَّر عدد الذين وقعوا في الأسر فريسة الصيد البشري (بالمعنى الحرفي لهذه العبارة) خلال هذه الفترة بين 13 إلى 15 مليون إنسان حُرَّ ، علمًا بأن العدد الحقيقي لم يُعَرَفْ أبدًا ، وهنا - مرة أخرى - كانت الأعمال الوحشية موجَّهة من مجتمع مُتَحَضِّر ضد أحرار مسالمين من الشعوب البدائية (التي تُوصَفُ بالبربرية) .

فإذا تأملنا الإمبريالية الحديثة ، بمعنى المواجهة بين الحضارة الأوربية وبين ما يُسمَّى بالشعوب المتخلفة غير المتحضرة أو الأقل حضارة ، نجد أنَّ هذه الإمبريالية تُفَصِّحُ عن نفسها في كل مكان بغُفْها وخداعها ونفاقها واستعبادها ، كما تبدو في تدمير جميع القيم المادية والثقافية والأخلاقية للشعوب البدائية الضعيفة .

ما أشبه اليوم بالبارحة : وهل نَرَى من الإمبريالية الأمريكية الصهيونية باسم التحضر والديمقراطية سوى هذا الوجه القبيح ! .

يُمَيِّزُ ((عزت بيحوفيتش)) بين الحضارة والثقافة ويمنحُ هذه النقطة حيزًا بارزًا من كتابه ونجد له في ذلك تحليلات عميقة في أكثر من موضع ، حيث يَرِطُهَا بالنشأة الأولى للإنسان ، وبالأخلاق وَيَنْتَهِي إلى تساؤلات جوهرية عن مصدر الشرِّ في الإنسان .

الأخلاق والتاريخ :

موضوعُ الثقافة موضوعٌ ثابتٌ هو لماذا نحيا ؟ أما الحضارة فهي تَقْدُمُ متصل يَتَعَلَّقُ بسؤال آخر هو : كيف نحيا ؟ فالأول سؤال عن معنى الحياة والثاني سؤال عن كيفية هذه الحياة . ويُمكنُ تمثيلُ

الحضارة بخطّ صاعد على الدوام يبدأ من اكتشاف النار ماراً بالطواحين المائية ثم اكتشاف الحديد والكتابة والآلة حتى الطاقة الذرية ورحلات الفضاء . أما الثقافة فهي بحثٌ دائمٌ يعود إلى الوراء ثم يبدأ من جديد ، ذلك لأن الإنسان باعتباره موضوعَ الثقافة بأخطائه النمطية وفضائله وشكوكه وخطاياها وكلّ ما يشكل وجوده الجوّانيّ ، يبرهنُ على أولويته الفائقة ونستطيع أن نقولَ أيضاً - إلى حدّ كبير - عَدَمَ قابليته للتغيير .

فجميع المعضلات والمشاكل المعروفة اليوم في الأخلاق كانت معروفة منذ أكثر من ألفي سنة مَضَتْ ، فجميع معلّمي البشرية من أنبياء وغير أنبياء عبّر أحقاب من الزمن تمتدّ من القرن السادس قبل الميلاد حتى العصر الحالي ، جميعهم علّموا البشرية نفس الأخلاق . فالحقائق الأخلاقية حقائق ثابتة وهي بذلك تتميز عن القواعد والنظم الاجتماعية وأساليب الإنتاج والسبب في هذا التميّز يرجع إلى أن لُغزَ الإنسانية قد بدأ في لحظة الخلق الإلهي أو في هذه (المقدّمة السماوية) (التي جَمَعَ الله فيها ذرية آدم عليه السلام على هيئة لا نعلمها وقال لهم : { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ } ؟ قالوا : بلى ...) هذا الفعل الإلهي الذي سَبَقَ تاريخ الإنسانية كله ليس في مقدور العقل أو العلم أو الخبرة وحدها أن يساعدنا في الاقتراب أو الفهم لهذا اللغز العظيم .

والوصايا الأخلاقية الجوهرية لا تتأثر بالزمان والمكان ولا بالظروف الاجتماعية .. فعلى عكس ما نراه في النظم الاجتماعية والسياسية من اختلافات كبرى في درجة تطورها حتى في رموزها الدينية وعقائدها نجد تماثلاً عجيباً في المبادئ الأخلاقية في أنحاء العالم .

إنّ الاختلافات في قهّم الخير والشر ، المسموع والممنوع تصادفنا فقط في المسائل الأقل أهمية ، وما يقدّم إلينا عادة من أمثلة عن استناد الأخلاق إلى ظروف تاريخية وغيرها لا تتصل على الإطلاق بالمبادئ الأساسية في الأخلاق وإنما فقط بما يتعلّق بالأخلاقيات والسلوكيات الرسمية ، أما في أهم المسائل فتستطيع أن تجدَ توافقاً مؤكّداً بل تطابقاً .

الدراما والطوبيا :

تحت عنوان الدراما والطوبيا يُناقش ((عزت بيحوفيتش)) قضية الخير والشر فيتساءل : هل يأتي الشرُّ من الداخل .. من الأعماق المظلمة في النفس الإنسانية ؟ أم أنه يأتي من الخارج .. أي من الظروف الموضوعية للحياة الإنسانية ؟ ، وإجابة على هذا التساؤل يقول : أمام هذه القضية ينقسم الناس إلى طائفتين كبيرتين : المؤمنون والمادّيون ، يعتقد المؤمنون أن نوازع الخير والشرّ كلاهما مركوزة في الإنسان ومن ثمّ فإنهم يُنكروُن توجيه اللوم والقسوة إلى الخارج ؛ لأن هذا يكون قتالاً مع شرّ خيالي لا وجود له ، إنما ينبغي توجيه اللوم إلى أنفسنا على هيئة ندَمٍ وتَقَشُّفٍ .

وَيَرَى ((عزت بيجوفيتش)) أن التأكيد على فكرة أن للشر وجودًا خارجيًا وأن الإنسان يكون شريرًا فقط لأن الظروف المحيطة به ظروف سيئة ، هذا التأكيد على أن الإنسان نتاج ظروفه الخارجية يُعْتَبَر من وجهة نظر الدين أكثر الأفكار إلحادًا ولا إنسانية ، ذلك لأنها تختزل الإنسان إلى مجرد شيء - إلى خادم تعيس لقوى آلية عمياء بلا اختيار ولا إرادة .

ويقول : (الشرُّ بداخل الإنسان) و (الشرُّ في البيئة الاجتماعية) عبارتان بينهما أقصى التعارض ، وهما يتوازيان مع ظاهرتين أخريين بينهما تعارض بل صدام ألا وهما : الدراما والطوبيا .

والطوبيا هي (المدينة الفاضلة) أو (الجمهورية المثالية) التي تخيلها بعض الفلاسفة مثل ((أفلاطون)) و ((توماس مور)) ، وهي مجتمع خيالي مصنوع لم ينشأ طبيعيًا أو تلقائيًا وإنما مُخَطَّط ومبرمج من ألفة إلى يائه ، ابتداء من اختيار أفرادهِ من نوعيات وأعمار مُعَيَّنة ، وخضوع هؤلاء الأفراد لقواعد صارمة تتناول علاقاته الأسرية والاجتماعية كما تتناول نوع الطعام وأساليب العمل والراحة .. وتُبيِّن كيف يستبعد الفرد من المجتمع بالقتل إذا مَرَضَ أو أُنْجِبَ مريضًا .

هذه الطوبيا الكاملة آلية لا إنسانية فيها ، فإذا كانت الحرية هي جوهر الدراما الإنسانية فإن النظام والتمائل هما العنصران الأساسيان في الطوبيا .

تتعامل الدراما مع الإنسان ، أما الطوبيا فتتعامل مع العالم .. في الطوبيا يَصْمَحِلُ عالم الإنسان الجواني الهائل ليتحوَّل إلى نقطة هامشية زائفة ، فالافتراض المسبق في الطوبيا هو أن الناس ليس لهم نفوس ومن ثمَّ لا توجد مشكلات إنسانية أو أخلاقية في الطوبيا .. الناس هنا لا يَحْيُونَ وإنما يعملون في وظائف .. إنهم لا يَحْيُونَ لأنهم مَحْرُومُونَ من الحرية - والمواطن هنا ليس له شخصية بل له وظيفة في عملية الإنتاج .. إنتاج نسخة من نفسه عن طريق التوالد ، والخير والشر كلمتان لا معنى لهما عنده .. وهكذا كانت المجتمعات الشيوعية القائمة على طوبيا الاشتراكية العلمية لا تُعْنَى بالمشكلات الأخلاقية ، فالطوبيا أبعد ما تكون عن معايير الخير والشر فكلُّ شيء فيها مُخَطَّط .

الدراما من حيث جوهرها وتاريخها فهي نتاج الدين ، أما الطوبيا فهي نوعٌ من العلم ، وفي هذا يرى ((ألدوس هكسلي)) أن إنسان المستقبل سيكون إنسانًا صناعيًا ناتجًا عن التكنولوجيا التي صَنَعَهَا بنفسه .. بواسطة التقدمات التي تحقَّقت في علم الجينات ، سوف يتمُّ إنتاج الجنين البشري في معامل كبيرة وفقًا لنماذج تحدَّد تصميمه مسبقًا ، وسيساعد العلم في خَلْقِ كائنات بشرية كاملة التماثل أي نُسَخ مُكرَّرة من كائنات لن تكون لها شخصيات مستقلة متميزة ، ولكنها تتمتع بدلاً من ذلك بأفضل الخصائص .

ساكن الطوبيا ليس إنساناً بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة بل حيوان اجتماعي أو حيوان ذو عقل .
 يكون الإنسان أخلاقياً أو لا أخلاقياً أما عضو المجتمع الطوباوي فلا يتميز إلا بوظيفته فحسب .
 في الطوبيا أحداث خارجية تتلخص في قضية (الإنتاج والاستهلاك والتوزيع) ، والطوبيا عقيدة
 الملحد وليست عقيدة المؤمن ، فإذا كان الإنسان فرداً (شخصية) وليس حيواناً فإن هذه العقيدة
 مجرد وهم ، ولقد أصبح المجتمع المثالي (الطوبيا) مستحيلاً منذ لحظة الخلق لحظة ألسنة
 الإنسان ، فمنذ تلك اللحظة بدأ الإنسان يواجه صراعاً أبدياً يعصف به القلق والإحباط ، إنها
 الدراما الإنسانية الخالدة :

{ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ... }

حقيقة الخلق وإرادة الله في وجود الإنسان جعلها هذه الآلية الطوباوية وهماً مستحيلاً ، ومن هنا جاء
 تعصّب الطوبيات جميعاً ضد الدين وإنكارها للألوهية .
 وهكذا : بينما أعلن أنبياء الطوبيا أن المجتمع ومصالحه هي القيمة الأسمى ، فقد أراد الله أن يكون
 الإنسان هو صاحب هذه القيمة القيمة .. لقد وهب الله الحرية للإنسان لكي يجعل من هذا العالم
 فتنه له واختباراً ، ولكي يؤكد أن الإنسان وروح الإنسان هي القيمة الأعلى ..
 فإذا آمنت بروح الإنسان فإن هذا يعني عملياً أن تكون واعياً بمحيط هائل صعب العبور ، هادر
 بالعصيان والخوف والشك والتمرد . وإذا عرفت بأن أخصّ خصائص الإنسان فردية النبي لا شفاء له
 منها ، تبين لك استحالة قبولية الإنسان أو تدجينه ، إنه ما أن يحصل على حياة الرخاء والدعة حتى
 ينبذها بازدياء ، ويهبط باحثاً عن حريته وحقوقه الإنسانية .. (إن الإنسان حيوان يرفض أن يكون
 حيواناً) .

الطوبيا والأسرة :

الأسرة ليست هي الخلية الأساسية للمجتمع كما تُعلن بعض الدساتير القديمة ، { على الأقل يجب
 أن نأخذ هذه المقولة بشيء من الحذر } فالأسرة والمجتمع متنافران ذلك لأنّ المبدأ الرابط في
 الأسرة هو الحبّ والعاطفة وفي المجتمع هو المصلحة أو العقل أو كلاهما معاً ، وكلّ درجة تطوّر
 في المجتمع يقابلها حيف بالأسرة بنفس الدرجة فإذا تمّ تطبيق المبدأ الاجتماعي بكل نتائجه - أي
 وصل إلى وضع الطوبيا - تلاشت الأسرة ، فالأسرة باعتبارها حاضنة العلاقات الرومانسية
 والشخصية الحميمة في تعارض مع جميع مبادئ الطوبيا .. تضيق دائرة الأسرة حتى أصبح
 الاجتماع في علاقة زوجية مستحيلاً من الناحية العملية وفي النهاية لا يبقى سوى الفرد وحده مع
 علاقة سائبة بالجنس الآخر .. بهذا الانحلال يتوقّف الزواج ..

في هذا المناخ يصبح حملُ الأطفال متحرراً من أي عاطفة ؛ لأنه مجرد وظيفة أو شكّل من اشكال الإنتاج ..

في مجتمعات الطوبيا تتحوّل جميعُ أساسيات الوجود الإنساني من اجتماعية ومادية ومعنوية من الأسرة إلى المجتمع .. تقول داعية تحرير المرأة الفرنسية (سيمون دي بوافوار) : ستظلُّ المرأة مستعبدة حتى يتمّ القضاء على خرافة الأسرة وخرافة الأمومة والغريزة الأبوية) ولا تقضي الحضارة الغربية على الأسرة فقط من الناحية النظرية ، وإنما تفعلُ ذلك في الواقع أيضاً . فقد كان الرجلُ أولَ من هجر الأسرة ثم تبعته المرأة وأخيراً الأطفال . ونستطيعُ أن نتبع القضاء على الأسرة في كثير من الجوانب :

فَعَدَدُ حالات الزواج في تَفْهَقُرٍ مُسْتَمِرٍّ مع تزايد في نسبة حالات الطلاق ، وتزايد في عدد النساء العاملات وزيادة مطردة في عدد المواليد غير الشرعيين ، وزيادة مستمرة في عدد الأسر التي تقوم على أحد الوالدين فقط هي الأم .. الخ .

وفي استبيانات فرنسية مع طالبات المدارس أصبحت الرغبة في الزواج تَرُدُّ في آخر القائمة ، بينما تحتلُّ الرغبة في الاستقلال والحياة السائبة المركز الأول .

وَنَشَرَ معهدُ استكهولم للبحوث الاجتماعية نتائجَ مَسَحٍ أجراه سنة 1972 نعرفُ منه أن النساء اللاتي يذهبن إلى دور الدعارة في أكثر الحالات نساء ميسورات الحال ، وإنما أصبحن مدمات للدعارة فقط لأنهن يستعدين هذا الأسلوب من أساليب الحياة السائبة .

والنتيجة انتشار للطلاق وانفصام عرى الأسر وهروب الأطفال من البيوت .. وفي هذه الأوضاع المتردية يجد المسنون أنفسهم في أسوأ حال .. فهذه الحضارة العقلانية تُفَصِّلُ العالمَ على مقاس الشباب وأهوائهم ومزاجهم . غابت الأم من البيت وتخلّت عن وجهها التربوي فيه تلد فقط ، أما التربية فتتولاها الحضانة التي لا تُربّي إنساناً بل تُنشئ عضواً في مجتمع .. تُصمّمُ مواطناً يسكنُ الطوبيا . فبدلاً من التربية والتنشئة الإنسانية نُواجه عمليةً تكنولوجية كأننا يازاء إنتاج دواجن .

وترتفع على رأس هذه المجتمعات العبارة الماركسية الشهيرة كما وردت في كتاب (رأس المال) : ((إنَّ الأطفالَ من كلا الجنسين يجبُ حمايتهما من الأبوين)) ! ..

فلا غرابة في هذه الأجواء أن تنهار نسبة المواليد حتى تصل المجتمعات الغربية إلى درجة الصفر في النمو ، وتزداد أعداد المَرْضَى بأمراض عقلية .. ويحدثُ هذا في أكثر بلاد الدنيا غنى وصحة ! ..

الأتباع والهراطقة :

((يوجد نوعٌ من الناس يُعجَبُون بالسلطة القويّة ، يُحِبُّون النظام ويعشقون التنظيم الخارجي الذي يُشبه تنظيم الجيش ، حيث يكون معروفًا مَنْ يُعْطَى الأوامر وَمَنْ يطيعها ، إنهم يُحِبُّون المناطق الجديدة التي أُلْحِقَتْ بالمدن ، حيث تُقام المنازل متشابهة في صفوف متراسة ذات واجهات موحّدة ، ويحبون الزي الرسمي الموحد وفرق موسيقى الجيش والاستعراضات ، وغيرها من الأكاذيب التي تُزيّن وَجْه الحياة وتجعلها أكثر قبولاً .. هؤلاء الناس يتمتعون بعقلية الأتباع .. إنهم ببساطة يُحِبُّون أن يكونوا أتباعاً فَهُمْ يُحِبُّون الأمن والنظام والمؤسسات والثناء من رؤسائهم .. وهم مُخلِصُونَ مسالمون أوفياء .. ويُحِبُّ الأتباع أن تكونَ عليهم سلطة ويُحِبُّ أصحاب السلطة أن يكونَ لهم أتباع فَهُمْ جميعاً متوافقون كأنهم أجزاء من كل واحد .

ومن ناحيةٍ أخرى يوجد أناسٌ أشقياء ملعونون ، في ثورة دائمة ضد شيء ما ، يتطلعون إلى شيء جديدٍ على الدوام ، إنهم قليلاً ما يتحدثون عن الخبز ولكنهم يتحدثون عن الحُرّيّة كثيراً .. يتحدثون عن السلام قليلاً وعن الشخصية الإنسانية كثيراً ، ولا يَقْبَلُونَ فكرة أن الملك هو الذي يَمْنَحُهُمْ مُرتَبَاتِهِمْ ، وإنما على العكس يزعمون أنهم هم الذين يُطْعِمُونَ الملك (ليست الحكومة هي التي تَعُولُنَا وإنما نحن الذين نَعُولُهُمْ) .

هؤلاء هم الهراطقة الخارجون لا يُحِبُّون السلطة ولا تُحِبُّهم السلطة . في الأديان يُؤَفَّر الأتباع الأشخاصُ السلطات والأوثانُ ، أما عشاقُ الحُرّيّة المتمردون فإنهم يُمَجِّدُونَ الله فَحَسَب .

المجتمع والجماعة :

في الحديث عن الأسرة أشار ((عزت بيجوفيتش)) إلى أن الأسرة والمجتمع مُتنافران ، وقد يُؤخَذ من هذا أنه يَرَفُضُ المجتمع ، وليس هذا بصحيح إنما أراد أن يُوضَّحَ لنا أنَّ هذا المصطلح الغربي للمجتمعات الإنسانية ينطوي على كيان مادّي تقوم فيه العلاقات على المصالح المادّيّة وتبادلها ، فالمجتمع من هذه الناحية ضرورة حياة ، ولكن المصطلح الإسلامي للتجمُّعات البشرية فإن الجماعة تُمثِّلُ الناحية (الجوانية) الجوهرية لهذه التجمُّعات ، لأنها تَحْتَضِنُ روح الإنسان ومشاعره وهويته الحقيقية .. وفي هذا يقول : ((يجب أن نُفَرِّقَ بين المجتمع الذي هو مجموعة (برانية) من الأفراد تَجَمُّعُوا على أساس من المصلحة وبين الجماعة التي هي مجموعة (جوانية) من الناس اجتمعوا على أساس من الشعور بالانتماء . المجتمع قائمٌ على المطالب المادّيّة والجماعة قائمة على المطالب الروحية .. على الأشواق . الناس في المجتمع أعضاء مجهولون تَجَمُّعُهُم المصلحة وتُفَرِّقُهُمْ ، وفي الجماعة يكون الناس أخوة تجمعهم أفكار واحدة كما تَجَمُّعُهُم الثقة .. وباختصار : شعورهم بأنهم واحد .. يُوجَدُ المجتمع ؛ لأنه يُسهِّلُ لنا الحصول على المنافع ويضمّن بقاءنا ..

فالطفل لا يُمكنه البقاء بدون مساعدة الآخرين .. والكبير لا يستطيع العيش عيشة مُيسرة بدون مَعِيَّة الآخرين ، وهذا هو مصدر قيام المجتمع بمعناه (البراني) .. ولذا يمكننا أن تَسْتَخْلِصَ من هذا أن طموحات الإنسان للحياة في مجتمع لا تنبع من وجوده الحقيقي وإنما من الضرورة . فالسعي إلى المشاركة في مجتمع لا يتمُّ من ناحية الاعتبار الجوهرية في الإنسان وإنما من أجل المنافع التي يُوفِّرها المجتمع . المجتمع تَحْكُمُهُ قوانين البقاء للأصلح .. قوانين التبعية والاستغلال .. أو على أحسن الفروض القوانين التي تَسْمَحُ بالمشاركة في المصالح . لكن الجماعة وحدها هي التي تَعْرِفُ العدالة وتبادل المعونة والتضامن والأخوة .

ولقد نشأ كثيرٌ من سوء الفهم نتيجة للخلط غير الواعي بين هذه المصطلحين)) .

الإسلام – الوحدة ثنائية القطب :

موسى وعيسى ومحمد :

للإسلام تاريخان سابق على ظهور النبي محمد @ وتاريخ آخر بعد ظهوره ، هذا التاريخ للاحق هو تاريخ الإسلام الذي نعرفه اليوم ، ولكن الدارس لا يستطيع فَهْمَهُ فَهْمًا كاملاً ما لم يكن على معرفة كافية بتاريخ الإسلام السابق وعلى الأخص فترة اليهودية والمسيحية .

هذه الأديان الثلاثة (الإسلام واليهودية والمسيحية) قامت بدور أساسي في تاريخ الإنسانية ، ومن خلالها أصبح الإنسان محور التاريخ .. في هذه الأديان عرف الإنسان أيضاً معنى الحياة الجوانية والحياة البرانية ، كما عرف معنى التقدُّم الجَوَانِي والتقدُّم البراني وما بينهما من علاقات وحدود .

جاء الإسلام بخبرة عن الجنس البشري تَوَجَّحَ بها النجاحات التاريخية لليهودية والمسيحية وتَلَأَفَى إخفاقاتها .. وهكذا فإنَّ الأنبياء الثلاثة : موسى وعيسى ومحمد قد تجسَّدَتْ فيهم ثلاثة إمكانيات مبدئية لكل ما هو إنساني :

فاليهودية تُمَثِّلُ بين الأديان اتجاه (هذا العالم الدنيوي) فجميع أفكار ونظريات العقل اليهودي مَعْنِيَةٌ بإقامة جَنَّةٍ أرضية ، حتى كتاب (أيوب) (في العهد القديم) هو حلمٌ بالعدالة التي لا بدَّ أن تتحقَّقَ على الأرض وليس في العالم الآخر وإنما (هنا والآن) .. هذا الكتاب منسوب إلى النبي أيوب عليه السلام الذي توسَّع الشعراء العبرانيون في قصته وجعلوا منها أسطورة البريء التقى الذي اشتدَّ عليه العقاب قسوة وظلمًا !! ..

لم يَتَقَبَّلِ اليهود أبداً فكرة الخلود الأخروي .. فحتى وقت ظهور المسيح كان الصدوقيون لا يزالون يرفضونها .. ويُقَرَّرُ الفيلسوف ((موسى بن ميمون)) وهو أكبر مفكّر يهودي ظهر في العصور الوسطى أن الخلود فكرة غير ذات موضوع .. لأنها في نظره تنقض نفسها بنفسها ! ..

أما مملكة الربّ التي كان اليهود يَتَنَبُّون بها قبل ظهور المسيح كان من المفترض أنها تستحق على الأرض وليس في السماء كما يُؤْمِنُ المسيحيون . ففي كتابات اليهود عن (سِفْر الرؤيا) يُمَجِّدون المسيح المنتقم الذي يأتي لتحقيق العدالة .

فالمسيح الذي كان ينتظره اليهود لم يكن نبياً يعاني ويموت وإنما بطلاً قومياً يُقِيمُ دولة الشعب المختار . فالعالم الذي يكون فيه العادل تعيشاً عالم بلا معنى .. هذا هو المبدأ الأساسي للعدالة اليهودية ، بل كلّ عدالة اجتماعية ، ففكرة أن تكون الجَنَّة على الأرض فكرة يهودية في أساسها سواء من ناحية خصائصها أو أصولها .

وكان نمط التاريخ اليهودي في ماضيه وحاضره مصدر جاذبية قوية لجميع المقهورين وأصحاب الحظّ العاثر في كل زمان ، وقد تَبَنَّى القديس ((أوغسطين)) هذا النمط للمسيحية كما تَبَنَّاه ((ماركس)) للاشتراكية . وجميع الثورات والطوباريات والعقائد الاشتراكية وما يجري في مجراها من أفكار تتطلع إلى جَنَّة في الأرض - كلّها يهودية صادرة من (العهد القديم) .

بل إنّ فكرة الماسونية عن اليقظة الأخلاقية للبشر عن طريق العلم هي فكرة وَضعية يهودية .. ولعلّ من الأهمية بمكان الكشف عن العلاقات الخفية والظاهرة بين (الوضعية المنطقية) والماسونية واليهودية ، فهذه العلاقات والتأثيرات ليست معنوية فحسب وإنما هي علاقات واقعية ملموسة . ويرى (سومبارت) أن تاريخ اليهود هو تاريخ التطور التجاري للعالم . وأول ما ظهرت العلوم الذريّة كانت معروفة باسم العِلْم اليهودي ، ويمكن أن يُوصَفُ عِلْمُ الاقتصاد السياسي بالصفة نفسها ، فليس من قبيل المصادفة أن تكون أَلَمَعُ الأسماء في علوم الطبيعة النووية والاقتصادية والسياسية والاشتراكية جميعاً وبدون استثناء من اليهود .

لم يُسْهِم اليهود دائماً في الثقافة ولكنهم كانوا يساهمون دائماً في الحضارة .. ويبدو كأنهم في هجرة دائمة من حضارة آفلة إلى حضارة أخرى وليدة . وقد حَدَّثَ هذا أيضاً في الغرب .. يقول الفيلسوف الإنجليزي (براتراندرسل) : ((إنّ اليهود لم يكن لهم أي تأثير على الثقافة في البلاد المسيحية)) . ولكن ما أن تسود الثقافة في مدينة ما حتى يَظْهَر اليهود ولقد نشأت مستعمرات يهودية في كل مدينة رئيسية على طول التاريخ ، ففي التاريخ القديم نجد مدينة صور ، وصيدا ، وأنطاكية ، والقدس ، والإسكندرية ، وقرطاجة ، وروما . وفي أسبانيا الإسلامية (الأندلس) نجد مدن قرطبة ، وغرناطة ، وتوليدو ، وأشبيلية . وفي بداية عصر النهضة نجد مدن أمستردام وفينسيا ومارسليا ، وفي العصر الحاضر في كل مدن العالم الكبرى وعلى الأخص المدن الأمريكية . هذه هي خُطى الأقدام التي صَنَعَتْ تاريخ اليهود .

وفي تمويل اليهود لرحلة (كولمبس) رَمَزٌ على إسهامهم مباشرة في اكتشاف عالم جديد شَرَعَ يمارس الحضارة منذ بدايتها الأولى . وكان أب العصر النووي الحديث يهوديًا أيضًا وهو ((أينشتاين)) . وهكذا كان اليهود في كلِّ الظروف حملة التقدُّم البراني المادة ، بمثل ما كان المسيحيون حملة التقدُّم الجواني .

الدين المجرد :

المادِّيَّة اليهودية (أو الوُضعية) هي التي لَفَتَت العقلَ الإنساني (خلال التاريخ اليهودي) إلى العالم وأثارت الاهتمام بالواقع الخارجي ، أما المسيحية فَقَدْ لَفَتَت الروح الإنسانية إلى نفسها ، فالواقعية الصريحة للعهد القديم لا يُمكنُ التغلُّبُ عليها إلا بمثالية حاسمة للعهد الجديد .

لا يصحَّ - في المسيحية شَطَرُ الطاقة الإنسانية إلى اتجاهين متعاكسين : اتجاه السماء واتجاه الأرض ، (فلا يستطيع إنسان أن يخدم سيدين ، فهو إما أن يكره أحدهما ويحبُّ الآخر أو يتمسكُ بأحدهما ويستخفُّ بالآخر ، إنك لا تستطيع أن تخدم الربَّ وتخدم مامون) ، (وكلمة مامون في الكتابات الإنجيلية تشير إلى شيطان الشهوة والمال) ...

لقد لاحظت السلطات الكنسية وجودَ اختلافات جوهرية بين روح (العهد القديم) و (العهد الجديد) حيث يذهبُ إنجيلُ مرقس إلى أن المسيح قد ألغى قانون موسى واستبدل (يهو) إله العدالة ومنقذَ العالم المادِّي بإله الحبِّ الذي خلَقَ عالم الغيب اللا مرئي ، وكما (يقال) : في هذا الإنجيل تبدو مبادئ الزهد وللا غُفِّ والامتناع عن مقاومة الشرِّ أكثر وضوحًا من الأناجيل الأخرى .

ولذلك فإنَّ الدين منذ البداية ينبذ أي تَوَجُّهٍ لتغيير العالم الخارجي أو محاولة جَعْلِهِ عالمًا كاملاً . فالدين المجرد - من هذا المنطلق - يحكم على أي اعتقاد إنساني بأن تنظيم العالم الخارجي أو تغييره يُؤدِّي إلى زيادة في الخير الحقيقي - بأنه خطيئة - أو هو في الحقيقة من أنواع خداع النفس .. فالدين إجابة على سؤال كيف تحيا في ذاتك وتواجه هذه الذات ، وليس إجابة على سؤال كيف تعيش في العالم مع الآخرين .. إنه مَعْبُدٌ على قمةِ جَبَلٍ أو مَلَاذٍ على الإنسان أن يَرْتَقِيَ إليه تاركًا خَلْفَهُ خواء عالم لا سبيل إلى إصلاحه .. عالم يهيمن عليه الشيطان وحده .. هذا هو الدين المجرد .

إن الطريق الذي يدعو إليه الدين طريق شاق ولا يصلح لسلوكه إلا مَنْ كَرَسُوا أنفسهم له .. وعندما صَرَحَ القرآن { لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها } كان يُوجِّه الإشارة بوضوح إلى المسيحية .. ولذلك عَرَفَت الأديان المجردة طريقين أو برنامجين : حيث يوجد في البوذية (الماهيان) أو الطريق

العظيم وهو طريق شاقٍّ أليم مُقْتَصِرٌ على الصفوة ، وطريق آخر يُسَمَّى (الهنايانا) وهو طريق مُيسَّرٌ وأقلُّ قسوة مفتوح لعامة الناس . وفي المسيحية تقسيم مماثل : فهناك حياة خاصّة للقساوسة والنظام الإكليروسي ، في مقابل الحياة العادية لعامة الناس . العزوبة لرجال الدين في مقابل الزواج المسموح به لعامة الناس ، فالعزوبة هي الطريق الصحيح الأمثل أما الزواج فتسوية أو حلٌّ وسط . إنَّ القُوَى (الجوانية) المصحوبة بنكران الذات مسألة شخصية بأسرها ترتبط دائماً برفضٍ لكلِّ نشاط اجتماعي .. فالمسيحية والدين (المجرد) بصفة عامة – من حيث معارضتهما للعنف – لا يمكن لهما التأثير في أي شيء من شأنه أن يُحسِّن من وَضْعِ الإنسانية من الناحية الاجتماعية .

فالتغيرات الاجتماعية لا تأتي بواسطة الصلوات والأخلاقيات (وحدهما) وإنما عن طريق قوة مُدْعَمَةٍ بالأفكار أو المصلحة . ومن هنا جاء الاتهام – الذي قد يُبرِّزه التاريخ ولكن لا تُبرِّزه الأخلاق – أن الدين إنما يُدْعَمُ الأمر الواقع السائد في عصره ، وأنه بهذا يخدم الطبقة الحاكمة بصرف النظر عن المعارضة النفسية .. والقرآن يُسَمَّى المسيحية (بلاغاً) وتُسَمَّى الأناجيل (بشاراً) .. بشاراً لأعمق ما في الوجود الإنساني من حقائق : (حبّ جارك كما تحبُّ نفسك) .. (حبّ أعدائك وبارك لاعينك) .. (لا تُقاوم الشرَّ) .. هذه المطالب تسير ضد فطرة المنطق العملي في حياة الإنسان مما يوجِّهنا نحو البحث عن معناها الحقيقي .. إنها تُوحِي بالبشارة لعالم آخر كما قال المسيح : (إنَّ مملكتي ليست في هذا العالم) .

قبول المسيح ورفضه :

يُؤَثِّرُ الدين في العالم فقط عندما يُصْبَحُ هو نفسه دنيوياً بمعنى أن يُصْبَحَ مَعْنِيًا بالسياسة في معناها الواسع . ومن هذه الناحية يقال : إن الإسلام مسيحية أُعيدَ تكييفها تجاه العالم .. هذا التعريف يَكْشِفُ لنا عن التشابه وعن الاختلاف بين الدينين .

في تصنيف (هيجل) للأديان اعتبر الإسلام استمراراً لليهودية .. وهذه الفكرة عن الإسلام تنبع من وجهة نظرٍ مسيحية ، وذهب (شبنجلر) إلى رأيٍ يُشَبِّه هذا عندما قال : (إنَّ كتاب أيوب) كتابة إسلامية . وفي كتابها (أنماط من الأديان المقارنة) وَضَعَتْ (مرسيا) إيلادي (النبي محمد @) على مفترق طريق التحوُّل من المرحلة الثانية إلى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل التحوُّل الروحي للجنس البشري . ومن ثَمَّ فالمرحلة الثالثة – التي لم تَنْتَهِ بعد – بدأت بمحمد @ ، حيث تذهب ((إيلادي)) إلى أن تاريخ العقل الإنساني هو عملية (عِلْمَنَة) عامة ، وبهذه الرؤية يقف محمد @ على حافة سيادة المسيحية وبداية العصر العلماني الحديث ، بمعنى أنه يقف في النقطة البؤرية للتوازن التاريخي .

فإذا نَحِينًا جانبًا رؤية ((إيلادي)) التاريخية ذات البعد الواحد - وهي رؤية غير مقبولة من وجهة نظرنا - نستبقي منها إشارتها إلى الموقف (الوسط) للإسلام ولمحمد @ الذي تتميز به هذه الرؤية . هذا الانطباع يظل ثابتًا بصرف النظر عن اختلاف (المقتربات) أو التفسيرات .

لقد تَجَنَّبَ المسيحُ دخولَ القدس ؛ لأنها مدينة الفريسيين [*] والمجادلين والكتاب والكفار وأصحاب الإيمان السطحي ، ومن ناحية أخرى لا تُوجَّه الاشتراكية خطابها لأبناء الريف وإنما تَتَوَجَّه به لأبناء المدن الكبرى ، أما محمد @ فكان يذهب إلى غار حراء ليتعبد ولكنه كان يعود في كلِّ مرة إلى المدينة الكافرة (مكة) لكي يُؤدِّي رسالته .

ومع ذلك فإنَّ كل ما حَدَثَ في مكة لا يمكن وَصْفُه بأنه ((الإسلام)) ؛ لأن الإسلام اكتمل وبلغ ذروته في (المدينة) .. لقد كان محمد @ في غار حراء صائمًا مُتَنَسِّكًا مُتَصَوِّفًا حنيفًا ، وكان في مكة مُبَشِّرًا بفكرة دينية أما في المدينة فقد أصبح داعية إلى (الفكرة الإسلامية) .. لقد اكتملت الرسالة المحمدية وتَبَلُّوَرَتْ في المدينة { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا } .. هناك في المدينة وليس في مكة كانت بداية ومصدر النظام الإسلامي الاجتماعي كله .

كان لابدَّ لمحمد @ أن يعودَ من الغار فلو أنه لم يُعَدِّ لبقِي حنيفيًا ولكنه عاد من الغار وشرع يدعو إلى الإسلام ، وهكذا تَمَّ الامتزاج بين العالم الجواني وعالم الواقع .. بين التنسُّك والعقل .. بين التأمل والنشاط لقد بدأ الإسلام صُوفِيًّا ثم أَخَذَ يتطور حتى أصبح دولة ، وهذا يعني أن الدين قد تَقَبَّلَ عالم الواقع وأصبح (إسلامًا) .

الإسلام نسخة من الإنسان ، ففي الإسلام تمامًا ما في الإنسان .. فيه تلك الومضة الإلهية .. وفيه تعاليم عن الواقع والظلال .. بالإسلام جوانب قد لا تَرَوُقُ للشعراء الرومانسيين فالقرآن واقعي لا مكان فيه لأبطال الملاحم .. والإسلام بدون إنسان يُطَبِّقُه يَصْغُبُ فَهْمُه ، وقد لا يكون له وجود بالمعنى الصحيح ...

لم تبلغ المسيحية أبدًا الوعي التَّامَ بوحداية الله : فيها مفهومٌ مَفْعَمٌ بالحيوية عن الألوهية . ولكن لا توجد بها فكرة واضحة عن الله .. وكانت مُهِمَّةُ محمد @ أن يجعلَ الفكرة الإنجيلية عن الله أكثر وضوحًا وأقر إلى عَقْلِ الإنسان وفِكْرِهِ ، فالله هو الإله الواحد الذي تتوقُّ إليه النفوس وتَصْبُو إليه أَفْكَارٌ نبيله في عَقُولِنَا .

في الأنجيل الإله (أب) وفي القرآن الله (رب) العباد ، الإله في الأنجيل محبة ، وفي القرآن (جلال يستحقُّ الحمد والثناء) . هذه الخاصية في فَهْمِ المسيحية للألوهية انقلبت فيما بعد إلى

سلسلة من الصور المختلطة ضَحَّتْ بالوحدانية الأصلية للمسيحية في سبيل الثالث والآخر العذراء والقديسين .. مثل هذا التطور غير ممكن في الإسلام ، فبرغم كلِّ ما مُرِّ به الإسلام من نكبات تاريخية ظلَّ الإسلام (أنقى أديان التوحيد) . النفس الإنسانية قادرة على تصور الألوهية فحسب ، أما خلال العقل فإنَّ الألوهية تتحوَّل إلى فكرة (الله الواحد الأحد) .

إله المسيحية هو رب عالم الأفراد (الناس والأنفس) بينما يملك الشيطان زمامَ العالم المادِّي ، ولذلك فإنَّ الاعتقاد المسيحي في الله يتطلب الحرية الجوانية . بينما العقيدة الإسلامية في الله تنطوي إضافة إلى ذلك على الحرية البرانية أيضًا . إنَّ الاعتقادين الأساسيين في الإسلام : (الله أكبر) و (.. لا إله إلا الله) هما في الوقت نفسه أعظم القوى الثورية في الإسلام . لم تستطع المسيحية كذلك أن تتقبَّل فكرة أن يظلَّ الإنسان الكامل إنسانًا . ومن ثمَّ استنتج المسيحيون من كلام عيسى فكرة (الإله الإنسان) ومن ثمَّ اعتبروا عيسى ابنًا لله ، ولكن ظلَّ محمد @ إنسانًا فقط . لقد أعطى محمد @ المثلَّ الأعلى للإنسان والجندي في الوقت نفسه .. أما عيسى عليه السلام فقد خَلَفَ انطباعًا ملائكيًا .

كذلك كان الأمر بالنسبة للنساء فقد احتفظ القرآن لوظائفهن الطبيعية كزوجات وأمّهات على عكس صورة (مارتا) وماري في الأناجيل .. ولذلك فإنَّ الهجوم المسيحي على طبيعة محمد @ الإنسانية الخالصة - أكثر مما يجب - هو هجوم ناتج في الواقع عن سوء فهم . فالقرآن نفسه يؤكِّد أنَّ محمدًا ليس إلا إنسانًا :

{ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً } .. { قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد } ، كما كَشَفَ القرآن عن الاتهامات التي ستوجَّه إليه في المستقبل حيث قال : { وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق } .

إنَّ مجرد المقارنة بين قاموس المفردات المستخدمة في الأناجيل والتي وردت في القرآن يُؤدِّي بنا إلى العديد من الاستنتاجات الواضحة .. في الأناجيل يتكرر ورود ألفاظ مُعيَّنة تكرارًا ملحوظًا مثل : مبارك ، مقدَّس ، ملاك ، الحياة الأبدية ، سماوات ، الفريسي ، خطيئة ، حب ، ندم ، عضو ، سر ، الجسد (كحامل للخطيئة) ، النفس ، تطهر ، خلاص .. الخ . بينما في القرآن نجد المصطلحات نفسها مصاغة على صورة هذا العالم وقد اكتسبت واقعية وتحديداً مثل : العقل ، الصحة ، التطهر (الوضوء) ، القوة ، الشراء ، العقد ، الرهان ، الكتابة ، الأسلحة ، القتال ، التجارة ، الفاكهة ، العزم ، الحذر ، العقاب ، العدل ، الربح ، الانتقام ، الصيد ، الشفاء ، المنافع .. الخ .

لا يعرف الإسلام كتابات دينية (لاهوتية) مُعَيَّنة بالمعنى المفهوم في أوروبا للكلمة ، كما أنه لا يعرف كتابات دنيوية مُجَرَّدة ، فكل مفكر إسلامي هو عالم دين ، كما أن كل حركة إسلامية صحيحة هي حركة سياسية .

وَيُمْكِنُ استخلاص نتائج مماثلة من المقارنة بين المسجد والكنيسة ، فالمسجد مكان للناس أما الكنيسة فهي (معبد الرب) .. في المسجد يسود جوٌّ من العقلانية وفي الكنيسة جوٌّ من الصوفية .. المسجد بؤرة نشاط دائم ، وهو (عادة) قريب من السوق في قلب المناطق الآهلة بالسكان ، أما الكنيسة فتبدو أقلَّ التحامًا ببيئتها ، ويميل التصميم المعماري للكنيسة إلى الصمت والظلام والارتفاع إشارة إلى عالم آخر .. وعندما يَدْخُلُ الناسُ كاتدرائية .. يتركون خارجها كلَّ اهتمام بالدنيا كأنهم داخلون إلى عالم آخر ، أما المسجد فمن المفروض أن يُناقَشَ الناسُ فيه بعد انتهائهم من الصلاة هموم دنياهم .. وهذا هو الفرق .

تستطيع الأناجيل أن تقول : { عِشْ كَمَا تَحْيَا الزَّانِقُ فِي الْحَقُولِ } ، ولكن القرآن يحثُّ الناسُ على الكدح والسعي وراء العيش فيقول : { وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا } ، ويذكرهم بنعمة النهار المضيء الذي يُسَهِّلُ السعي فيقول : { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } [غافر : 61] .

يؤكد القرآن - على خلاف - الأناجيل أنَّ الله خَلَقَ الإنسان ليكون سيدًا في الأرض (خليفة) ، وأن الإنسان يُمكنه تسخير الطبيعة والعالم خلال المعرفة والعمل أي بالعلم والفعل . من هذه الحقيقة وبتركيز الإسلام على القانون والعدالة يبرهن على أنه لا يستهدف الثقافة فقط وإنما يسعى لبناء حضارة أيضًا .

وقد يُسْتَدَلُّ على موقف الإسلام تجاه الحضارة من خلال اهتمامه بالقراءة والكتابة باعتبارهما أقوى مُحَرِّكَ للحضارة ، فلا غرابة أن يُعْنَى بهما الوحي فكانت أول ما نَزَلَ على محمد (a) من آيات القرآن { إقرأ باسم ربك الذي خلق } .. وقد تبدو القراءة غريبة عن الدين (المجرد) .. فقد بقيت الأناجيل تقليدًا شفويًا لفترة طويلة من الزمن .. وعلى عَكْسِ ذلك اعتاد محمد (a) أن يُمْلِيَ آيات القرآن على كُتَّاب الوحي فور نزولها ، وهي ممارسة لم يكن عيسى (عليه السلام) ليقبلها لأنها أقرب ما تكون إلى اهتمامات الفرنسيين التي كان يَسْتَكْرِها .

إنَّ إصرار القرآن على حقِّ محاربة الظلم { والذين أصابهم البغي هم ينتصرون ... } ليس من قبيل التَّدِينِ بمعناه الضيق فمبادئ اللا عُنْف واللامقاومة أقرب إلى مبادئ الدين المجرد وهي مبادئ تَظْهَرُ بشكل متماثل في تعاليم عيسى (عليه السلام) ، وفي الفكر الديني الهندي ، حيث نجد لها

امتداداً عند ((غاندي)) في ((الستياجراها)) ، وهي أسلوب للنضال عن طريق اللاعنف والعصيان المدني . وعندما أقرَّ القرآن القتال بل أمر به بدلاً من الرضوخ للمعاناة والظلم لم يكن يُقرَّر مبادئ دين أو أخلاق وإنما كان يَضَعُ قواعد سياسية واجتماعية . لقد كان محمد (a) مقاتلاً . كان لتحريم الخمر في الإسلام - بالدرجة الأولى - صفة اجتماعية فالخمر شرٌّ اجتماعي ، وليس في الدين المجرد شيء ضد الخمر ، بل إنَّ بعض الأديان استخدمت الكحول كعامل صناعي يُساعد على استحضار النشوة ، شأنه في ذلك شأن الإلظام في الكاتدرائيات ورائحة البخور المُعطرَّة فكُلُّها وسائل تُؤدِّي إلى هذا النوع من المخدِّر المطلوب .. ولا يرى المسيحيون خطأ في أن يتحوَّل الخمر - رمزياً - إلى دم المسيح خلال القربان المقدَّس فلا نجد في المسيحية تحريماً للخمر كما حرَّمها الإسلام واعتبرها من الكبائر .. ذلك لأن الإسلام عندما حرَّم الخمر سلَّك مسلك العلم لا مسلك الدين المجرد .

كيف انشطرت وحدة الإسلام :

لقد انشطرت وحدة الإسلام على يد أناسٍ قَصَرُوا الإسلام على جانبه الديني المجرد فأهدروا وحدته ، وهي خاصيته التي ينفرد بها عن سائر الأديان . لقد اختزلوا الإسلام إلى دين مجرد أو إلى صوفية فتدهورت أحوال المسلمين ، ذلك لأن المسلمين عندما يضعف نشاطهم ، وعندما يُهمَلُون دَوْرَهُم في هذا العالم ، ويتوقَّفون عن التفاعل معه تصبح الدولة الإسلامية كأي دولة أخرى ، ويصبح تأثير الجانب الديني في الإسلام كتأثير أي دين آخر وتصبح الدولة قوة عريانة لا تخدم إلا نفسها ، في حين يبدأ الدين (الذي أصبح خاملاً) يجرُّ المجتمع نحو : السلبية والتخلُّف ، ويُشكِّلُ الملوك والأمراء والعلماء الملحدون ورجال الكهنوت وفرق الدراويش والصوفية والشعراء السكارى ، يُشكِّلُون جميعاً الوجه الخارجي للانشطار الداخلي الذي أصاب الإسلام . وهنا نَعُودُ إلى المعادلة المسيحية : (أعطِ ما لقيصرَ لقيصرَ وما لله لله) .

إنَّ الفلسفة الصوفية والمذاهب الباطنية تُمثِّلُ - على وجه اليقين - نمطاً من أكثر الأنماط انحرافاً ، ولذلك يُمكنُ أن نُطلقَ عليها (نصْرَنَة) الإسلام ..

نقول هذا الكلام وفي ذهننا الممارسات الخاطئة لبعض فرق الدراويش التي انتهت بهم إلى السلبية والانسحاب من الحياة النشطة ، ولكن إذا كان الحديث عن التَّدْيُنِ العميق فإننا نقول : إنَّ كل مسلم ملتزم هو صوفي بمعنى من المعاني ، وأنَّ محمدًا (a) كان في مقدِّمة الجميع .

وهناك خطر التماذي في الاتجاه الآخر وأعني به (مادية) الإسلام ، ولكن الانطباع العام السائد أن مادية الإسلام أو مجموع العناصر الطبيعية والاجتماعية المتضمنة في صلِّبه تُحصِّنُ العالم الإسلامي

ضد الأفكار المتطرفة .. ولذلك فإنَّ عدمَ (نجاح) الثورة الشيوعية في الدول الإسلامية ليس من قبيل المصادفة ، فالإسلام لا يحتاجُ إلى (ماركس) ؛ لأنَّ فيه (عدالته) الخاصة ، إذا صحَّ هذا التعبير .

*** يقصدُ العدالة الاجتماعية في الإسلام .**

(ثنائية أعمدة الإسلام الخمسة)

الصلاة :

لا تصحُّ الصلاة في الإسلام بدون وضوء ، بينما في الدين المجرد يُمكنُ أداء الصلاة مع وجود القدرة ، وتُسمَّى حينذاك (القدرة المقدَّسة) كما عرفتُها نُظُمُ الرهينة في كلِّ من المسيحية والهندوسية ، فالرهبان الذين يَتَجَنَّبون النظافة يشعرون شعورًا دينيًا أصيلاً أنَّ إغفالَ البدن بل الإهمال المتعمد لنظافته يُقوِّي الجانب الروحي في الصلاة ، فالصلاة (عندهم) تكونُ أصدق إذا تَجَنَّبَ (المرء) أي عناية بالبدن .

أما في الإسلام فالوضوء والحركات في الصلاة تُشكِّل الجانب العقلي منها ، فلا تجعلها مقصورةً على جانبها الروحي المجرد بل تضيف إليها النظام والصحة . وفي الوضوء فجرا بالماء البارد يوجد بالتأكيد شيء من الروح العسكرية (تؤكدها) صفوف صلاة الجماعة المتلاحمة . وتشمِّل الحركات الخارجية للصلاة جميعَ أعضاء الجسم تقريبًا ولأنَّها تُؤدِّي خمس مرات في اليوم على الأقل فهي وسيلة فعَّالة لعلاج الخمور والاسترخاء .

فالصلاة بهذا الجمع بين الروحي والبدني في إطار واحد تعتبر أكمل تصوير لما يُطلقُ عليه ((عزت بيجوفيتش)) (الوحدة ثنائية القطب) .

حتى الوضوء الذي يُحسبُ على جانبه البدني والعقلاني في الصلاة هو بدوره ليس أُحادي الجانب بل فيه ثنائية ، فهو نظافة وصحَّة ولكنه فضيلة روحية أيضًا لذلك . يقول الله سبحانه (إِنَّ الله يحبُّ التوابين ويحبُّ المتطهرين) ، وعبرة (النظافة من الإيمان) لا تُوجدُ إلا في الإسلام ، فالبدن ونظافته في جميع الأديان الأخرى المعروفة خارج الاعتبار .. وصلاة التراويح المصاحبة للصيام في رمضان لها أثرها الصحي ولها هدفٌ طبيّ .. وهو أيضًا ممكن فقط في الإسلام .

إنَّ مواقيت الصلاة مثل مواقيت الصيام والحج تعتمدُ جميعًا على حقائق فلكية مُعيَّنة .. فالصلاة الإسلامية تشتملُ على عناصر روحية وعناصر مادية وطبيعية على حدٍّ سواء .. وكان التطور السريع لعلم الفلك في قرون الإسلام الأولى وثيق الصلة بحاجة المسلمين إلى التحديد الدقيق للمكان والزمان ، ولدينا أسباب عديدة للاعتقاد بأن هذا التطور كان هدفًا من أهداف الإسلام .

هذا الجانب من الصلاة (سَمَّهْ إِنَّ شَتَّ الجانب الديني أو العلمي أو الطبيعي) يُزَكِّي بقوة صفة أخرى هي الصفة الاجتماعية في جماعة ، ولكنها أيضاً مناسبة للعلاقات الشخصية المباشرة ، وبهذا الاعتبار تكون الصلاة ضد السلبية والفردية والانعزال ، فإذا كانت الحياة تُفَرِّقُ الناس فإنَّ المسجد يُجَمِّعُهُمْ وَيَمَزْجُهُمْ . إنها مدرسة يومية للتآلف والمساواة والوحدة ومشاعر الودِّ . ويُتَوَجَّ هذا الاتجاه الاجتماعي في الصلاة .. (خصوصاً) صلاة الجمعة .. فهي تكان تكون صلاة حضرية سياسية ، تقام في الإجازة الأسبوعية ، في مسجد مركزي جامع يحضره بعض رجال الدولة .. وخطبة الجمعة قَبْلُ الصلاة جزءٌ لا يَتَجَزَّأُ من الصلاة ، وهي بصفة رئيسية رسالة سياسية .. وقد يقول المسيحيون : إنَّ هذا يتعارض مع مفهوم الصلاة ، وهو استنتاج يَتَفَقُّ مع الطريقة المسيحية في التفكير ، ولكنه استنتاج غير مُبَرَّرٍ من وجهة نظر الإسلام .

الزكاة :

التحوُّل من الدين المجرَّد إلى الإسلام ظاهر بوضوح في مسألة الزكاة ، ففي المرحلة المكيَّة كانت الزكاة تُمنَحُ للفقراء على سبيل التطوع (صدقات تطوعية) .. ولكن عندما تأسَّس مجتمع المدينة - وهي اللحظة التاريخية التي تحوَّلت فيها الجماعة الروحية إلى دولة - بدأ محمد (ﷺ) يعاملُ الزكاة باعتبارها التزاماً قانونياً (فريضة شرعية) ، أي ضريبة يدفعها الأغنياء للفقراء .. وهي - على قَدَرٍ علمنا - أول ضريبة من نوعها في التاريخ ، كأن الإسلام قد أنشأ الزكاة عندما أضاف الإلزام القانوني إلى المؤسسة المسيحية للصدقة .

لقد جاء فَرَضُ الزكاة استجابة لظاهرة ليست في حدِّ ذاتها واحدة الجانب . فالفقر ليس قضية اجتماعية بَحْتَهُ ، فليس سَبَبُهُ العوز فقط وإنما أيضاً في الشرِّ الذي تنطوي عليه النفوس البشرية ، فالحرمان هو الجانب الخارجي للفقر وأما جانبه الداخلي فهو الجشع (أو الإثم) وإلا فكيف نُفسِّرُ وجود الفقر في مجتمعات ثريَّة ؟ إننا في النصف الثاني من القرن العشرين ولا يزال ثُلُثُ البشرية يعاني من نَقْصٍ مُزْمَنٍ في التغذية ، فهل يرجع هذا إلى نَقْصٍ في الغذاء أم إلى نَقْصٍ في الشعور ! ؟ ، إنَّ أي حلٍّ لمشكلة الفقر ينبغي أن يَتَضَمَّنَ الاعتراف بالذنب .. فكلُّ حلٍّ اجتماعي لابدَّ أن يَتَضَمَّنَ حلاً إنسانياً ، بمعنى أنه لا ينبغي الاكتفاء بتغيير العلاقات الاقتصادية ، بل أيضاً العلاقات الإنسانية ، يجب إحداث التوزيع العادل ، وكذلك التنشئة الصحيحة للناس التي تقوم على الحبِّ والتعاطف .

الزكاة مرآة للناس .. إنها تقضي على الفقر بين المحتاجين وتقضي على اللامبالاة بين الأغنياء ، إنها تُقلِّلُ من التفاوت المادِّي بين الناس وتُقَرِّبُهُمْ بعضهم من بعض .

إنَّ غاية الإسلام ليس هي القضاء على الأغنياء وإنما القضاء على الفقر .. والاعتبارات القانونية المتصلة بالزكاة مقصورة على : كم تُعْطَى مما تملك لمن ؟ ، إلا أن مؤسسة الزكاة تَعْتَبِرُ أنَّ مبدأ التضامن في حدِّ ذاته هو الأهم من مجرد النسب المستحقة والأرقام ، فطبقاً لهذا المبدأ يُمَثَّلُ التزام أغنياء المجتمع بكفالة فقرائه الأهمية الحاسمة في القضية .. ولا يساورنا أدنى شك أنه إذا قام نظام إسلامي صحيح فإن سيناضل من أجل تحقيق الهدف من هذا المبدأ بصرفِ النظر عن مستوى الدَّخَل أو إحصائيات السكان .. وحيث أن الزكاة حقٌّ للفقراء فإنه سيتمُّ توفيرها بالقوة إذا لَزِمَ الأمر .

وفقاً لبعض المصادر ذُكِرَ الإلزام بالعطاء (الصدقة) والتوصية بها في اثنين وثمانين موضعاً بالقرآن ، ونتيجة لإصرار التعاليم الإسلامية على العطاء والصدقة جَرَتْ ثورة هائلة في المجتمعات المسلمة تبلورت في مؤسسة (الأوقاف) ، والوقف من حيث انتشاره وأهميته لا يوجد له مثيل في البلاد غير الإسلامية ، فلا تكاد توجد دولة إسلامية واحدة ليس فيها ممتلكات كبيرة مُخَصَّصة للأوقاف وخدمة الخير العام .. لم يذكر الوقف في القرآن ولكنه لم يظهر في المجتمعات الإسلامية بمحض الصدقة ، إنما كان ظهوره نتيجة لسيادة روح التضامن ولتأثير وظيفة الزكاة التعليمي في المجتمعات المسلمة ، هذه التجربة الإنسانية تُوفِّرُ الأمل في أن غايات اجتماعية مُعَيَّنة يُمكنُ تحقيقها بدون عُنْفٍ .

تأكَّد في القرآن توحيد فريضتي الصلاة والزكاة (واقترانهما) بصفة مستمرة ، وقد روى عبد الله بن مسعود عن رسول الله @ أنه قال ما معناه : ((لقد أُمِرْتُم بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ فَمَنْ لَا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ لَا صَلَاةَ لَهُ)) .. ولا يوجد تفسير لذلك إلا أنها دعوة ضد فصل الأعمال عن الإيمان أو فصل الإنسان عن الدنيا ، وهي دعوة إسلامية في صميم جوهرها .. وقد استخدم أبو بكر - الخليفة الأول - المنطق نفسه عندما قرَّر استخدام القوة ضد مانعي الزكاة .. ودُكِّرَ أنه قال في هذا الموقف : ((والله لأقاتلنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ)) .

إنَّ المعادلة القرآنية المألوفة التي تَجْمَعُ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ليست إلا صيغة مُعَيَّنة من معادلة أخرى (ثنائية القطب) أكثر تكراراً وأكثر عمومية وهي (آمِن .. وافعل الخير) (قُلْ آمَنْتُ ثُمَّ اسْتَقِم) .. والتي يُمكن اعتبارها الأساس الجوهرى للأوامر الدينية والأخلاقية والاجتماعية في القرآن . هذه المعادلة تُحدِّد العمودين اللذين لا بديل لهما واللذين يُقَوِّمُ عليهما الإسلام كلاً .. ولعلَّ من المناسب النظر إلى هذه المعادلة باعتبارها أول صيغة للإسلام فأرفعها ، فالإسلام بكامله يقع تحت صيغة (الوحدة ثنائية القطب) .

بهذا الأسلوب التحليلي المبدع يتناول ((عزت بيجوفيتش)) النطق بالشهادتين والصوم والحج ليكشف لنا عن انطباق هذا المبدأ في أمور أخرى كثيرة قد لا تخطر على بال أحد فيقول : إنَّ الشائئة التي يتميز بها الإسلام واضحة في أمور أخرى كثيرة ، انظر إلى هذه الآية من القرآن : { لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ... } [المائدة : 89] وهكذا (في هذا الموقف) ترى الأعمال الاجتماعية المفيدة في العالم الخارجي لها أولوية على الأعمال الروحية الخالصة ، فالأخيرة تُطَبَّقُ فقط كبديل عندما يستحيل أداء الأولى . يُكْرَسُ العهد القديم فكرة الأذى بالأذى ، ويكرس العهد الجديد العفو ، فانظر إلى القرآن كيف يُرَكَّبُ جُزْئِيًّا من هاتين الذرتين : { وجزاء سيئة مثلها ، فمن عفى وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين } .. ويكاد التركيب يبدو مباشرًا وآليًا في بعض الأحيان ، ففي سياق ذِكْرِ التوراة تَرُدُّ في القرآن هذه الآية : { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [المائدة : 45] ، إنَّ الإسلام ليس دينًا يُحَرِّمُ على الإنسان فاكهة الأرض ولا يُسْرِفُ في التحريم ، إنه لا يُلْعَنُ الأرض بل على العكس تمامًا فقد جَعَلَ ترابها طهورًا : فإذا لم يجد الإنسان الماء للطهارة والوضوء فتراب الأرض بديلٌ يُمكنُ استخدامه فيما يُعرَفُ (بالتيَّم) ، والرمزية في التيمُّم (وضوء بغير ماء) ليس لها معنى سوى ذلك .

بعض المسلمات الإسلامية دينية من حيث عنوانها أو صيغتها أو أصلها فقط ولكنها إسلامية بأحسن معنى لهذه الكلمة .. وَيَنْطَبِقُ هذا على الأمر بالنظافة وتحريم الخمر ، والأوامر المشابهة ليست من الدين المجرد لسبب بسيط أنها تنبع من العناية بالحياة (البرانية) المادِّية أو الاجتماعية وتكتسب معناها الكامل في إطارها الحضاري .. فالمدن الكبرى المزدهمة اليوم لا يُمكنُ الحفاظ على الحياة فيها بدون قَدَرٍ من النظافة الشخصية والعامة ، أما إدمان الخمر فقد أثبت أنه أكبر مشكلة في عَصْرِ التكنولوجيا والحياة المدنية المعاصرة ...

تنطبق الشائئة أيضًا على مصادر الإسلام ، فللإسلام مصدران أساسيان هما القرآن والسُّنة النبوية ، يُمَثَّلَانِ مَعًا الإلهام والخبرة ، الخلود والزمن ، التفكير والممارسة ، الفكرة والحياة .. وتشير التفاسير القرآنية إلى أنه بدون السُّنة النبوية أي بدون حياة النبي (a) يتعسَّرُ فَهْمُ القرآن فَهْمًا صحيحًا ، إنه فقط من خلال فَهْمِنَا لحياة الرسول (a) يَعرِضُ الإسلامُ نفسه كفلسفة عملية أو خُطَّة

شاملة للحياة كلها ، ((كان خُلِّقَ القرآن)) و ((كان قرآنًا يمشي على الأرض)) .. (هكذا وُصِفَ الرسول وُوصِفَتْ حياته) .

فإذا أضفنا إلى تحليلنا لهذين المصدرين فكرة (الإجماع) فإننا نطل في إطار الثنائية : فالإجماع عند الإمام الشافعي يعني اتفاق جميع الآراء وعند الطبري والرازي اتفاق أغلب علماء الفقه . ولم يكن الإسلام ليكون ما هو عليه لو أنه لم يجمع في ثنائية بين مبدأ الصفوة ومبدأ العدد معاً ، ففي الإجماع توجد الصفوة النوعية (الارستقراطية الفكرية) ويوجد الجانب العددي (الديمقراطية) .. (

وأخيراً نجد أن أعظم شخصية في الإسلام هي شخصية المجاهد الشهيد في سبيل الله .. فهو راهب وجدي في شخص واحد ، فما انقسم في المسيحية إلى مبدأ للرهبانية ومبدأ للفرسان اتحد في الإسلام في شخصية الشهيد (رهبان بالليل وفرسان بالنهار) .. إنها وحدة الروح والدم وهما مبدأان يَنْتَمِيَانِ إلى عالمين مختلفين .

لا يحتوي القرآن على حقائق علمية جاهزة ، ولكنه يتضمن موقفاً علمياً جوهرياً (يتجلى) في اهتمامه بالعالم الخارجي وهو أمر غير مألوف في الأديان . يشير القرآن إلى حقائق كثيرة في الطبيعة ويدعو الإنسان للاستجابة إليها .

ولا يبدو هنا الأمر بالعلم والقراءة متعارضاً مع فكرة الألوهية ، بل إنه قد صُدِّرَ باسم الله : { اقرأ باسم ربك الذي خلق } ... بمقتضى هذا الأمر لا يلاحظ الإنسان ويبحث ويفهم طبيعة خلقت نفسها (كما يزعم الماديون) وإنما يلاحظ ويفهم الكون الذي أبدعه الله ، ولذلك فإن الملاحظة (المطلوبة) ليست بلا هدف أو خالية من الشوق وإنما هي مزيج من العلم وحب الاستطلاع والإعجاب الديني ، وكثير من أوصاف الطبيعة في القرآن على درجة عالية من الشاعرية ..

يورد (عزت بيجوفيتش) في هذا الصدد اثنتي عشرة آية كدليل على هذه الحقيقة نذكر منها هذه الآية :

{ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ

طَلَعَهَا قَنَوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ { [الأنعام : 95 - 99] .

يقول ((عزت بيجوفيتش)) :

((في هذه الآيات التي اتجهت بِكُلِّيَّتِهَا إلى الطبيعة نجدُ تَقَبُّلاً كاملاً للعالم ، ولا أثر فيها لأي نوع من الصراع مع الطبيعة ، فالإسلام يبرز ما في المادة من جمال ونبل كما هو الحال بالنسبة للجسم في موقف الصلاة ، فالعالم ليس مملكة للشيطان ، وليس الجسم مستودعاً للخطيئة ، حتى عالم الآخرة ، وهو غاية آمال الإنسان وأعظمها ، صَوَّرَهُ القرآن مغموساً بألوان هذا العالم ، ويرى المسيحيون في هذا حسيةً تتنافي مع عقيدتهم ، ولكن الإسلام لا يرى العالم الماديّ مستغريباً في إطاره الروحي .

وبعض آيات القرآن تُوقِظُ الفضولَ الفكري وتُعْطِي قوة دافعة للعقل المكتشف : { وجعلنا من الماء كل شيء حي } ، { وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ } [الرعد : 4] .
والآية الأخيرة على الأخص تستفزُّ الفكر فهي تطرح مشكلة تَكْمُنُ في أعماق علوم الكيمياء .
والنتيجة أن المسلمين هم الذين وَضَعُوا النهاية للجدل الذي دار حول قضايا جوهرية استحوذت على المسيحية عندما اتجهوا إلى الكيمياء ، وكان هذا تحوُّلاً من الفلسفة الصوفية إلى العلم العقلاني .

وفي جميع الآيات التي سَبَقَ اقتباسُها من القرآن عَنَصُرٌ مشتركٌ وهو الدعوة إلى الملاحظة وهي فَاعِلِيَّةٌ بدأت بواسطتها قدرة الإنسان على العالم الطبيعي .
ولقد أثبت البحث في أساس القوة الغربية أنَّ هذه القوة لا تَكْمُنُ في أسلحتها واقتصادها فهذا هو المظهر الخارجي للأشياء فقط ، وإنما يَكْمُنُ في الملاحظة والمنهج التجريبي في التفكير الذي ورثته الحضارة الغربية من (بيكون) الذي استمدَّه بدوره من المسلمين في الأندلس) .
كان ((روجر بيكون)) يجيد اللغة العربية وقد تَلَمَّذَ على يدِ الأساتذة المسلمين الأندلسيين .
من المستحيل تطبيق الإسلام في الممارسة العملية انطلاقاً من مستوى بدائي ، فالصلاة لا يُمكنُ أدائها أداءً صحيحاً إلا بضبط الوقت والاتجاه في المكان ، فالمسلمون (مع انتشارهم على سطح الكرة الأرضية) عليهم أن يتوجَّهوا جميعاً في الصلاة نحو الكعبة مُكَيِّفِينَ أوضاعهم في المكان على اختلاف مواقعهم ، وتحديد مواقيت الصلاة تَحْكُمُهُ حقائقُ عِلْمِ الفلك ولا بدَّ من تحديد هذه

المواقيت تحديداً دقيقاً خلال أيام السنة كلها ، ويقتضي هذا تحديد موقع الأرض في مدارها الفلكي حول الشمس .

وتحتاج الزكاة إلى إحصاء (المستحقين) ودليل (استحقاقهم الشرعي) وحساب مقادير الزكاة . ويتصل الحجُّ بالسفر وضرورة الإلمام بكثير من (المعلومات) والحقائق التي يتطلبها المسافر إلى مسافات بعيدة . فإذا وَضَعْنَا الأمر في أبسط صوره ، وإذا صَرَفْنَا النظر عن أي شيء آخر في الإسلام لوجدنا أن المجتمع المسلم بدون أن يمارس أي شيء سوى الأعمدة الخمسة للإسلام ، يجب عليه أن يبلغ حدًا أدنى من الحضارة ، ومعنى هذا أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يكون مُسْلِمًا ويبقى مُتَحَلِّفًا .

كان هذا الاتجاه مقصوداً بلا شك ، وتأتي الحجة على هذا من تاريخ العلوم الإسلامية نفسها ، فهي تُبَيِّنُ لنا أنَّ تطوّر جميع الميادين العلمية في القرن الأول الإسلامي قد بدأت بمحاولات تأدية الفرائض الإسلامية بأكبر قَدْرٍ من الدقّة .

التقدم العلمي :

وَجَدَ المسلمون في وادي نهر الفرات عِلْمَ التنجيم مزدهراً ، وقد جَمَعَ قَدْرًا من المعارف الهامة عن الظواهر الفلكية عَبْرَ ثلاثة آلاف سنة ، ولكن لأن الاعتقاد بارتباط مصير الإنسان بالنجوم (وهو ميدان عِلْمِ التنجيم) كان غريباً (مجافياً) للإسلام ، فإن التوحيد الإسلامي والعقلانية الإسلامية استطاعا تحويل عِلْمِ التنجيم إلى عِلْمِ فَلَكَ وقد أُنْشِئَتْ لهذا الغرض مدرسة بغداد لعلوم الفَلَكَ وُسِّمَتْ باسم مرصدها الشهير .

ويتحدّث (العالم سيديلوت) عن ذلك فيقول : ((كان من أخصّ خصائص مدرسة بغداد لعلم الفلك منذ نشأتها روحها العلمية : ألا تنتقل من المعلوم إلى المجهول وألا تُقْبَلَ شيئاً كأمر ثابت ما لم يتمّ التحقق منه عن طريق (الملاحظة) . وقد اقترب تقويم الفلكي المسلم (الخيام) من الدقّة التي يتميز بها التقويم الجريجوري الذي تستخدمه أوروبا حتى اليوم .

أما قوائم (توليدو) التي تُنسَبُ إلى مؤلّفها ((إبراهيم الزركلي)) وتختصُّ بدراسة حركات الكواكب فقد ظلّت لفترة طويلة من الزمن أساس عِلْمِ الفلك في أوروبا . وأَعْلَنَ ((البيروني)) أن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس وليست الشمس هي التي تدور حول الأرض كما كان شائعاً قبله ، وذهب ((ابن باجّه)) إلى أن مدارات الكواكب بيضوية وليست دائرية .

هذا الاهتمام الفدُّ بعلم الفلك وبالعلوم الطبيعية خلال القرن الأول للإسلام كان نتيجة مباشرة لتأثير القرآن ، فقد تحوّل الدين نحو الطبيعة وبدأت بذلك مرحلة عظيمة في تطور العلوم ، وكان هذا من أعظم الإنجازات التي تحقّقت في التاريخ .

إنَّ احتضان الدين للعلم اتجّاه إسلامي يُمكنُ أن يُرى في أحسن صوره في التحام المسجد بالمدرسة ، ويرجع أول قرار لبناء المدارس قُرب المساجد إلى الخليفة ((عمر بن الخطاب)) رضي الله عنه وقد تكرّر الأمر بذلك في عهد ((هارون الرشيد)) .. ولم تنفصل المدارس عن المساجد إلا بعد ذلك بعهد طويل ، وذلك عندما أُنشئت المدرسة (النظامية) في بغداد ، ومع ذلك فقد استمرّت البرامج الدراسية قائمة على أساس (الوحدة ثنائية القطب) ... وقد نتج عن التحام المسجد والمدرسة ظاهرة لا تُعرفُ إلا في إطار الثقافة الإسلامية ، وهي ما يُمكنُ أن يُطلقَ عليه (المسجدرسة) وهو بناء فريد يجمعُ بين وظيفتي المسجد والمدرسة معاً ، ولا يوجد له تسمية موازية في اللغات الأوروبية ، ويوجد دليل تاريخي على أن المسجد الأول الذي بناه النبي (a) بنفسه كان مدرسة في نفس الوقت وكان يُسمّى مسجد (الصُّفّة) .

هذا البناء المتميز هو المعادل المادّي أو التّقنيّ لتلك المُسلّمة الإسلامية لوحدة الدين والعلم التي بدأ بها نزول القرآن نفسه : { اقرأ باسم ربك الذي خلق .. }

وقد انعكس المفهوم نفسه في جميع البرامج التي قدّمتها هذه المدارس ، وكانت المدرسة النظامية في بغداد لزمن طويل نموذجاً للمدرسة الإسلامية في كل مكان . ورأى الأوروبيون أن هذه المدرسة تعتبر مدرسة دينية عُلّيا ، ولكن الحقيقة أن برامج هذه المدرسة - إلى جانب اشتغالها على علوم الدين من تفسير وحديث وأخلاق وعقائد - كانت تُعنى على المستوى ذاته بالقانون (الفقه) والفلسفة والآداب والرياضيات والفلك والطب كجزء لا يتجزأ من برامجها ، وكانت (النظامية) نموذجاً يُحتذى لكثير من المدارس المماثلة ، وأصبحت أكثر الأنماط شيوعاً في جميع المدن الإسلامية الكبرى .

ولذلك لا يُمكنُ تصنيف المدارس في العالم الإسلامي وفقاً للمعايير الأوروبية ، التي تُقسّم المدارس إلى مدنية ودينية ، فهذا النوع من المدارس اعتبرها المسلمون جميعاً أمراً طبعياً ؛ لأنها انبثقت مباشرة من الروح الإسلامية وظلّ الموقف سائداً إلى الوقت الحاضر ، وحيثما وُجدَ اختلاف فمرجهه إلى التأثير الأجنبي .

الوضع الأصلي للمدرسة يتوازى مع المفهوم الإسلامي الأساسي الذي يُوحّد بين الدين والعلم .
 فأزهر القاهرة هو أكبر وأقدم مدرسة (أنشئ عام 972 م) ويشار إليه دائماً كجامع وجامعة ، ولم يقتصر التعليم في الأزهر على علوم الدين فقط إلا في أحلك فترات التدهور ..
 إنَّ توجّه الإسلام نحو العالم الخارجي يمنحُه واقعيةً خاصة في فهمه للإنسان : فتقبّل الطبيعة بصفة عامة يتضمّن أيضاً تقبّل الطبيعة الإنسانية .. لقد رَفَضَتْ جميع الأديان الأخرى هذا العالم بما في ذلك جِسْمُ الإنسان . فالإسلام هو تحقيق المستحيل في نظر المسيحية ألا وهو الاعتراف بواقعية العالم . وتبدو بعض الآيات القرآنية غريبة في نظر الدين المجرد ، على سبيل المثال تلك الآيات المتعلقة بتقبّل المتعة البدنية والحب الجنسي والكذب والصحة .. وهكذا تبلورت أكبر حقيقة حاسمة في تاريخ الأديان ، وفي تاريخ العقل الإنساني بصفة عامة تميّزت بظهور (دين العالمين) عالم الدنيا وعالم الآخر) .. (عالم المادة وعالم الروح) .. بمعنى آخر ظهور المنظومة التي تختصّ الحياة الإنسانية بكلّ جوانبها .
 وتحقّق الإنسان أنه ليس في حاجة إلى أن يرفض الدين من أجل العلم ، أو يتخلّى عن الكذب في سبيل حياة أفضل من أجل الدين .
 في الوقت الذي يؤكّد فيه الإسلام على عظمة الإنسان وكرامته يبدى واقعية شديدة .. فالإسلام لا يتعسّف بتنمية خصال لا جذور لها في طبيعة الإنسان .. إنه لا يحاول أن يجعل منّا ملائكة ؛ لأنّ هذا مستحيل بل يميل إلى جعل الإنسان إنساناً .. في الإسلام قدرٌ من الزهد ولكنه لم يحاول بهذا الزهد أن يدمّر الحياة أو الصحة أو الفكر أو حب الاجتماع بالآخرين أو الرغبة في السعادة والمتعة .. هذا القدر من الزهد أريد به توازناً في غرائزنا ، أو توفير نوع من التوازن بين الجسم والروح ..
 بين الدوافع الحيوانية والدوافع الأخلاقية . وهكذا – من خلال الوضوء والصلاة والصيام وصلاة الجماعة والنشاط والملاحظة والكذب والتوسط – يواصل الإسلام عمل الفطرة في تشكيل الإنسان .
 إن هذا الموقف الإسلامي بالذات هو الذي سبّب سوء فهم العقل الغربي لهذا الدين .. وهو سوء فهم لا يزال مستمراً إلى اليوم !! ..
 لقد هاجم بعض النقاد الإسلام لِحَسَنَته المزعومة مُعزّرين دعواهم بمقتبسات من آيات القرآن وأمثلة من سيرة حياة محمد (ﷺ) ، ونحن نقول بصراحة وبلا مواربة : ((نعم .. إنّ الإسلام يدافع عن الحياة الطبيعية ولا يُكرّس الزهد فيها .. وأنه يدافع عن الشراء ضد الفقر ، وعلى قدرة الإنسان في تسخير الطبيعة ، ليس فقط على هذا الكوكب الأرضي فقط ولكن في الكون كله ما أمكن له

ذلك .. ولكن لكي نفهم موقف الإسلام فهما صحيحا لابد أن ننظر إلى أفكارنا : (الطبيعة والثروة والسياسة والعلم والقوة والمعرفة والسعادة) بطريقة مختلفة عما اعتاد عليه الناس في الحضارة الغربية ...

الحياة في الإسلام يحكمها عاملان متكاملان : أحدهما الرغبة الطبيعية في السعادة والقوة والثاني الكمال الأخلاقي .. هذان العاملان يتعارضان ويطرد أحدهما الآخر في إطار المنطق النظري فقط ولكنهما يتآزران بطرق عديدة في حياتنا وأمام أعيننا)) .

تهم الأناجيل الغرائز وتحدث عن الروح فقط أما القرآن فإنه يستعيد الغرائز ؛ لأنها حقيقة واقعة وإن لم يكن فيها سمو .. يتناول القرآن الغرائز مُتَفَهِّمًا لا مُتَهَمًا .. ولحكمة ما أمر الله الملائكة بالسجود للإنسان .. ألا يتضمن هذا السجود تفوق ما هو إنساني على ما هو ملائكي ؟ .. ليس الناس كائنات نبيلة حلوة الشمائل ، إنما هم فحسب مُهَيَّئون لفعل الخير .. إن لهم أبداناً وفيهم غلظة وتتجاذبهم الرغبات والمغريات من أقطارهم .. وتحت تأثير رغبة شاذة أن نجعل من الناس كائنات معصومة من الخطأ مُبَرَّاة من الإثم - تحققت فجأة أننا - بدلاً من ذلك - حصلنا على شخصيات زائفة حساسة شاحبة .. كائنات غير قادرة على فعل شر ولا خير .

قضية الإسلام هي قضية اتساق الإنسان مع نفسه اتساق مثله العليا مع رغباته المادية والاجتماعية والفكرية ، ذلك لأن الصراع في هذا المجال الحيوي مصدر أساسي للأمراض النفسية العصابية ، يضاف إلى المصدر الآخر ألا وهو الصراع بين الإنسان وبيئته .

إن الاضطرابات العصابية والتشوه النفسي الذي أصاب الإنسان الغربي يُعْتَبَرُ جزئياً نتيجة للصراع الداخلي بين المُثُلِ العليا للمسيحية وبين المنظومات السياسية للمجتمع التي تطورت منفصلة عن هذه المُثُلِ العليا ، بحيث أصبحت الكنيسة تزعى الروح بينما تتولّى الدولة التّحكّم في الأجسام وَفَقَ المُسَلِّمة القائلة : ((أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله)) .. لقد سُمِحَ للإنسان الغربي أن يكون

مسيحياً في حياته الخاصة وأن يكون (مكياً فيلياً) في معاملاته العامة وأعماله ، والذين لا يستطيعون أن يتحمّلوا هذا الصراع يقعون فريسة للاضطرابات العصابية .

من ناحية أخرى يكاد يُجْمَعُ الذين أُتِيحَ لهم التعرف على العالم الإسلامي على انطباع بأنه يوجد اتساق بين الإنسان وبين مجتمعه ، وباندماج الفرد في النسيج الاجتماعي ، وليس هذا الالتحام صناعياً أو سياسياً أو قانونياً وإنما التّحام جُؤاني عضوي .. هذه حقيقة قائمة رغم انتشار الفقر والتخلف في هذه البلاد .

لقد رَفَضَ النبي (a) التطرُّف .. وقد نَسَبَ إليه (رلف والدو إمرسون) حديثًا بهذا المعنى : (أنا خصمُ تقِيٍّ جاهلٍ وعالمٍ كافرٍ) .. ولا شكَّ أنَّ النبي (a) كان مخاصمًا لكثير من الأضداد المتطرفة : المؤمنون الضعفاء .. والحكام الذين لا يؤمنون بالله .. والنفس النقية في بَدَنٍ قَدِرٍ .. والنفس الفاسدة في جِسْمٍ مُهَنْدَمٍ .. كان محمد (a) خصمًا للعدالة التي لا تساندها قوة .. كما كان خصمًا للقوة الباغية .

لم يكن محمد (a) ليعترض على الغنى والوفرة ولكنه كان يُصِرُّ على الفضيلة مع الغنى .. وكان بالتأكيد ضد الفضيلة العريانة العاجزة التي ليس لها من يَحْمِيها .. وقد سَوَّى الرسول (a) الجهاد من أجل حياة أفضل .. الجهاد ضد الطغيان والجهل والمرض والفقر والقدارة - بالفضيلة الأخلاقية .

ليس المسلمون قديسين حتى عندما يُصَلُّون ويصومون .. إنهم أناس عاديون - رجالاً ونساءً - يَحْلُمُونَ بالحبِّ ومُتَعِ الحياة ومع ذلك فَهْمُ إنسانيون إلى النخاع .. يشاركون في الحياة الواقعية ويعودون إليها دائماً ، إنهم لا يعتزلون في الكهوف بعيداً عن المجتمع ولا يُهْمِلُونَ أنفسهم ، إنهم لا يَسْتَسْلِمُونَ ليكونوا تحت رحمة أعدائهم .. ولا يَرَفُضُونَ التمتع بالطيبات التي رَزَقَهُمُ الله بها .. إنَّ المسلمين لا يَعْتَبِرُونَ الحرية الجوانية كافية فكلُّ مؤمن يستمتع بهذا النوع من الحرية ، ولكنهم يحرصون على الحرية المادِّية ولا يرضون بأن يكونوا عبيداً لأحد ...

من هنا جاءت أهمية الإسلام باعتباره الحلَّ الأمثل للإنسانية لأنه يَعْتَرِفُ بما في طبيعة الإنسان من ثنائية ، وأيِّ حلٍّ مختلف يُغَلِّبُ جانباً من طبيعة الإنسان على حساب جانبه لآخر من شأنه أن يعوق انطلاق القُوَى الإنسانية (الكامنة) أو يُؤدِّي إلى صراع داخلي .. إنَّ الإنسان بطبيعته الثنائية أكبر حجة للإسلام .

الإسلام والحياة :

ليست الثنائية فلسفة سامية وإنما هي نوع من الحياة الإنسانية السامية : فالشعر (مثلاً) من حيث المبدأ مسألة قلبية إلا أنَّ كبار الشعراء قد جمعوا في شِعْرِهِم بين العقل والمشاعر .. بين العلم والجمال .. ولو أنَّ الشعر يَخُصُّ الفرد لا المجتمع إلا أنَّ هناك قصائد ساعدت في تشكيل الأمم وفي القضاء على العبودية .

كذلك الأمر بالنسبة للرياضيات فهي وإن كانت تَنْتَمِي إلى العقل إلا أنَّ عَالَمَ الرياضيات الْمُتَمَيِّزُ لابدَّ أن يكون شاعراً أيضاً ، وكان العلماء الكبار في الطبيعة والفلك صوفيين أيضاً بمعنى من المعاني .

وينطوي العقاب على فكرة الثنائية أيضاً فالعقاب وإن كان إجراء قَمْعِيًّا إلا أنه حافزاً أخلاقياً قوياً .. فإذا قام العقاب على العدل كانت له قيمة تعليمية بالنسبة للمذنب ولغيره من الناس .. فالخوف الذي يتولد من فكرة العقاب هو بداية للأخلاق مثلما أن خوفَ الله هو بداية لِحُبِّهِ .

وتعكسُ الثنائية نفسها في الرياضة البدنية فهي وإن كانت مجرد نشاط بدني إلا أن لها قيمة تعليمية كبيرة .. فلا غرابة أن الجسم والنفس .. القلب والعقل .. والعلم والدين تجتمعُ كلها عند نقطة واحد تُمثِّلُ قِمَّةَ الحياة .. أما العقل العريان أو الإلهام المجرد فهما من علامات التدهور .

وفي الوحدة ثنائية القطب يخدم المبدأ العلماني المبدأ الروحي : فنظافة البدن تساعد على تطهير النفس وتصبح الصلاة أسمى أنواع التأمل الروحي ..

ولابدَّ أن يكون الجسم قوياً ليقدر على إطاعة العقل فالخادم الجيد لابدَّ أن يكون قوياً .. وتفسح التجاوزات الطريق أمام الأهواء التي تضعف أجسامنا في النهاية .. وعلى عكس ذلك يُؤدِّي تعذيب البدن بالامتناع عن الطعام إلى النتيجة ذاتها ولكن لسبب مضاد .. وكلما كان الجسم ضعيفاً كان سلطانه على العقل أقوى وكلما كان قوياً كان أكثر طاعة .. فجميع الأهواء الحسية مختزنة في الجسم الضعيف وكلما قلَّ إشباعها كلما أوقعت بنا الآلام .

والقوة - من حيث المبدأ - لا صلاة لها بالأخلاق ولكن في الحياة الواقعية لا توجد عدالة حقيقية بدون قوَّة تُعزِّزُها ، فالعدالة وحدة تَجَمُّعُ بين مفهومي الإنصاف والقوة معاً .. لقد انبثقت أفكار المساواة والحرية والإخاء من الدين ، ولكن من حيث الواقع كان تحقيق هذه المبادئ بواسطة الثورة .. أعني بالسياسة والعنف .. وكان عجزُ الدين عن تحقيق بعض مبادئه العظيمة سبباً في التهوين من مصداقيته أمام المستضعفين والمقهورين ، وعلى العكس أمكنَ تبريرُ العنف والسياسة لأنهما أوجدا الوسائل المطلوبة لتحقيق الأفكار العظيمة التي دعا إليها الدين وبَشَّرَ بها ولكنه عَجَزَ عن ترجمتها إلى واقع .

العمل الإنساني :

للعمل الإنساني جانبان : الأول هو النشاط نفسه وهو إنساني لا نفعي ، والثاني هو النتيجة المترتبة على هذا النشاط أو الناتج الذي تُحَقِّقُ إليه المنفعة ، والدين مَعْنِي بالجانب الأول أما الحضارة فَمَعْنِيَّه بالجانب الثاني .. لا تُفَكِّرُ الحضارة (اشتراكية أو رأسمالية) إلا في النتائج .. وهي تحاول أن تَتَجَنَّبَ العمل بقدرٍ ما تستطيع ، وذلك من خلال تأجير قوة العمل سواء كانوا من العبيد في الزمن السالف أو الآلات في الزمن اللاحق .

و (بتحليل) العمل رأينا أنَّ العمل كنشاط نافع له جانبان : جانبه الأخلاقي وجانبه الاقتصادي .. فهو دفاع ضد الشرِّ والهوى كما أنه دفاع ضد الفقر ، والعمل بهذه الصفة الثنائية ظاهرة إسلامية . ويُمكنُ ملاحظة التوازي بين النافع والأخلاقي بوضوح في ظاهرة تهْمُ كلِّ من الحياتين الطبيعية والاجتماعية للإنسان .. إنها ظاهرة مَنعٍ أو تحديد الزواج من الأقارب خلال تاريخ تطور الأسرة الإنسانية ، في هذه الناحية نجدُ أن موقفَ العلم والأخلاق متفقان اتفاقاً كاملاً .

لقد وُجِدَ تحريمُ زواج الأقارب الأذنين في كل بقاع العالم وفي جميع الأزمنة ، وهذا مثَلٌ حَيٌّ لما يُمكنُ أن نُسَمِّيهِ بالإسلام (الفطري) وكأن الحياة نفسها قد اهتمت إلى طريقها الإسلامي .

لقد وُجِدَ أن تحريمَ زواج الأقارب الأذنين مَبْنِيٌّ على أسباب أخلاقية بمقدار ما هو مَبْنِيٌّ على أسباب بيولوجية صحية .. فقد أثبتت التجارب أنه قانون طبيعي لا يخصُّ الإنسان وحده وإنما ينطبقُ على الحيوان والنبات كذلك .. ويلاحظ أنَّ تحريم زواج الأقارب قديم جداً ، وقد اعتبر زواج (المحارم) خطأً أخلاقياً .. وهذا مثَلٌ كامل على التوافق بين الأخلاق والعلم وهو يُمثِّلُ جوهر ما نُسَمِّيهِ بالمقرب الإسلامي .

ينتقل ((عزت بيجوفيتش)) إلى مجال الطب ليثبت ما فيه من ثنائية ، فلم يكن الطب - في الماضي أو الحاضر - علماً بحثاً ، ولكن جَمَعَ إلى جانب العلم الحكمة والأخلاق والنظام الروحي في وقت واحد .. وقد اكتشفت حديثاً أمراض لم يُعرَف لها أسباب عضوية مُحدَّدة وإنما لها علاقة بالاضطرابات النفسية ومن ثَمَّ نَشَأَ فرعٌ حديث في الطب اختص بدراسة التأثير المتبادل بين الجسم والنفس وهو علم الطب ((السيكوسوماتي)) النفسجسدي .. هذا العلم يَعْتَبِرُ القروح والربو الشعبي والبدانة والسكرى والشقيقة وأنواع الصداع الأخرى والآلام الروماتزمية .. كل هذه الأمراض في أساسها ذات أصل نفسي .. ولهذا السبب لا يُمكنُ اختزال العلاج الصحيح إلى مجرد علاج (طبيعيميائي) فقط أو مجرد جراحة .. ويختلف العلاج من شخص إلى شخص آخر رغم أن المرض واحد .. ولذلك قد تكون هناك أجزاء من الحقيقة لا يصحُّ أن نستبعدَها في القصص القديمة عن الشفاء بالصلاة والقرايين والصيام .. إنَّ مستشفيات باريس حتى اليوم تستخدمُ الموسيقى في العلاج .. ولا عجب فإنَّ الطبَّ شأنه في ذلك شأن أي شيء آخر مَعْنَى بالإنسان مباشرة - عليه أن يُحقِّقَ التكامل بين العلم والدين .

يرفض ((عزت بيجوفيتش)) التفسير المادّي للتاريخ الذي يذهبُ إلى أنَّ العامل المادّي الموضوعي هو المؤثِّر الوحيد في التطور التاريخي ويرى أنه لا يُمكنُ إغفال دور التأثير الخلاق

لعامل الوَعْيِ الإنساني مُتَمَثِّلاً في الشخصيات القويّة والأفكار الكبرى والمُثُل العليا . فالوضع التاريخي في أي لحظة من الزمن هو نتيجة التفاعل بين هذين العاملين المستقلين .. يقول :

((إنَّ التأثير الإنساني على مَجْرَى التاريخ يتوقَّف على قوة الإرادة والوَعْيِ ، وكلما عَظُمَت القوة الروحية للمشاركة في الأحداث التاريخية كلما عَظُمَ استقلاله عن القوانين الخارجية والعكس صحيح . فمن حيث المبدأ الإنسان حرٌّ حرية كاملة وليس للقوانين الخارجية سلطان عليه ، فقد تَمَكَّنَ الإنسان بقوة إرادته أن يُقاوِمَ الأمراض والمخاطر .

إنَّ الإنسان إذا وَجَدَ نفسه بين الأسود قد يَهْلِكُ ، ولكن هذا القانون (البديهي) الواضح لا ينطبق على مُدَرَّبِ الأسود . والتاريخ قصة متصلة من مجموعات صغيرة من أناس تَمَيَّزُوا بالحسَمِ والشجاعة والذكاء .. تركوا طابعاً لا يُمَحَى في مجرى الأحداث التاريخية وتَمَكَّنُوا من تغيير مسار التاريخ .

إنَّ قوَّة الظروف الموضوعية تتزايد بالنسبة ذاتها التي يتناقص فيها العامل الفردي ، فكلما أصبح هذا خاملاً غير فَعَّال كلما نَقَصَ قَدْرُهُ في الإنسانية وزاد نَصِيبُهُ من الشيئية - إننا نملك القدرة على الطبيعة وعلى التاريخ إذا كانت لنا القدرة على أنفسنا .. وهذا هو موقف الإسلام من التاريخ : { إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم } .

هذه النظرية الإسلامية الجوهرية للأحداث التاريخية تستطيع أن تُفَسِّرَ لنا سير التاريخ وأن تُحدِّدَ نصيب الناس في (أحداثه) ، وأن تُحدِّدَ قدرتهم على هذه الأحداث ، وحدود هذه القدرة ن أي في إمكانها التمييز بين ما يستطيع الإنسان عمله وما ينبغي عمله باعتباره موضوعاً للأحداث التاريخية .. هذه النظرة تُفَسِّرُ لنا التأثير الخلاق للمُثُل العليا في الواقع التاريخي وتغيير هذا الواقع خلال إرادة الإنسان وطاقته ، ومن ناحية أخرى تُفَسِّرُ لنا دور العوامل الموضوعية أو ضرورة الاعتماد على الحقائق الموضوعية . هذه النظرة الإسلامية تَرْفُضُ الحتمية التاريخية كما تَرْفُضُ أيَّ مثالية جوفاء لا جذور لها في الواقع .. إنَّ الحقائق والأفكار ، ومن ثَمَّ الواقع والإنسان ، يأخذ كل منهما حدوده في هذا المفهوم .

الطبيعة الإسلامية للقانون :

عقد ((عزت بيحوفيتش)) فصلاً كاملاً عن القانون تحت هذا العنوان ، وهو من أبداع وأمتع فصول الكتاب ، ولكن لأنَّ هدفنا في هذا المختصر هو تبسيط الكتاب وتقديم صيغة موجزة له ، ولأنَّ أي تبسيط أو اختصار لهذا الفصل بالذات يُفَقِّدُهُ ما يتمنَّعُ به من زَخَمِ فلسفي فكري ويحجب تحليلاته البديعة وقوة منطقة لذلك سأكتفي باقتباس عبارات منه ذات دلالة .

وأبدأ بتحرير نقطة هامة تتعلقُ بشئائِة القانون التي تنبُع من مبدأ الشئائِة الإسلامية .. حيث يرى ((عزت بيجوفيتش)) أنَّ قوانِين أَنِي مجتمع هي تلك القوانين التي - بجانب التهديد بالعقاب - تلزم ضمير المواطن أيضًا .. وكل قانون منظومة قانونية هي كذلك أو على الأقل تتظاهر بأن تكون كذلك .. فهناك ثنائِة أصيلة في القانون : إرادة واضع القانون ، والعدالة التي جاء هذا القانون ليحققها ، هذه الشئائِة لا فِكَاك منها ولا يُمكنُ الاستغناء عنها .. فإذا تَحَطَّمتْ هذه الشئائِة يتلاشي القانون .. فهو إما أن يتقلَّصَ وينحصرَ في مصلحة السلطة السياسية فقط ، وإما أن يُتَسَامَى إلى مجرد فكرة أو دعوة أخلاقية ، وفي كلتا الحالتين يتوقَّف القانون عن أن يكون قانونًا .

معنى هذا أنَّ القانون لا يُمكنُ أن يقومَ على واحد من المبدأين فحسب : فلا المسيحية وحدها ولا المادِّية وحدها يُمكنُ أن تُنتجَ منظومة قانونية .. فالقانون كما يراه المسيحيون محاولة وهمية لتنظيم العالم محاولة مصيرها الفشل في النهاية ، لقد جاء عيسى (عليه السلام) لِيُشَرِّ بالمحبة ولم يأتِ من أجل العدالة التي قرَّرها التوراة .

إنَّ القانون موضوعي مغموس في السياسة والمجتمع مُوجَّه نحو هذا العالم ولكنه في الوقت نفسه ينطوي على معايير أخلاقية ويهدف إلى إقامة مبدأ العدل في العالم وهو مبدأ أخلاقي بهذا المعنى يكون القانون وحدة ثنائِة القطب ، فالقانون بحكم طبيعته إسلامي .

في جميع الدول (المستبدة) نواجه القوة الباطشة التي تحتكرها السلطات على حساب الهيئات المنتخبة ويحتكرها البوليس على حساب المحاكم والنظام القضائي .. هذا النوع من الدول من أكبر سماته أنه يحاول أن يجعل من المحاكم أدوات طيَّعة في قبضة السلطات الإدارية ..

في الإسلام نجد نوعًا من (وحدة الهوية) بين القانون والدين ، ونرى غالبية رجال الفكر الديني الكبار في الإسلام قد أَلَّفُوا كُتُبًا في الفقه وبين الدين في هذه المؤلفات ، كما أن الإسلام لا يعترف بهذا الانفصال ، بمعنى أن القانون إنما هو نتاج طبيعي للإسلام .

يقتبس ((عزت بيجوفيتش)) من ((الفريد كريمر)) قوله : ((إن العربَ (المسلمين) هم الأمة الوحيدة خلال القرون الوسطى الأولى التي استطاعت - في تطويرها للقانون - أن تُحَقِّق إنجازات باهرة .. هذه الإنجازات تقف بعظمتها مباشرة مع الأعمال التي حَقَّقها الرومان صنَّاع القانون في العالم)) .

في الدول الشيوعية أصابت المحاكم (اللعنة) التي لَحَقَتْ بالقانون باعتبارها الجهة المنفَّذة للقانون .. حيث نظرت إليها بازدراء .. وكلُّ حكومة من هذا الطراز تحاول أن تحطَّ من قدر القانون والمحاكم .. ولكن لأن الحكومات لم تنجح في محاولتها نجاحًا كاملاً فإنها عادة ما تتجاهل

المحاكم وتتجاوزها باستخدام المحاكمات المباشرة بواسطة البوليس والسلطات التنفيذية ومراكز الاعتقال أي بوسائل أخرى بعيداً عن المحاكم (التقليدية الطبيعية) .
إنَّ الشيء الثابت الذي لا يتغير في هذا الوضع هو عدم احترام الدولة لقوانينها وتجاوز هذه القوانين بإصدار عدد من الإجراءات الاستثنائية .. [يأتي في هذا السياق قوانين الطوارئ والمحاكم العسكرية] .

التقصير في حقوق الإنسان الفرد في ظلّ نظام (حماية المجتمع) .. يتعرّض الفرد لإجراءات تَعَسُفِيَّة دون ذَنْبٍ جَنَاه ، ويُمكنُ لتدابير حماية المجتمع أن تتخذ أشكالاً بالغة القسوة في حالتي المنع أو الوقاية من أخطار محتملة ..
ولقد استخدمت (إجراءات) من هذا النوع في بعض البلاد ضد المعارضة السياسية ..
الأفكار والواقع :

هذا هو عنوان الفصل العاشر من الكتاب يتناول فيه ((عزت بيجوفيتش)) حقيقة إنسانية هامة وهي أن الأيديولوجيات المتطرفة تضطر عند التطبيق إلى تنازلات تخالف مبادئها الأصلية .. حَدَثَ هذا في الماركسية وفي المسيحية عندما حاولنا بناء مجتمعات على أساس من مبادئهما .. فكان على الماركسية أن تتخلّى عن صَرَامَتِها المادّيّة وتعترف بشيء من الأخلاق وحقوق الإنسان ، وكان على المسيحية أن تتخلّى فكرتها عن العِقَّة (أو تُجَنَّبِ الزواج) مقصوراً على رجال الدين فقط ، واعترفت بالعمل بدلاً من الزهد في الدنيا والانقطاع عنها .
الطريق الثالث خارج الإسلام :

هو عنوان الفصل الحادي عشر .. يقول فيه ((عزت بيجوفيتش)) : ((.. ستظل أوروبا تُفكّر في إطار الاختبارات المسيحية : إما مملكة الرب وإما مملكة الأرض .. وسيظلّ دين أوروبا وإلحادها سادرين في طبيعتهما المتطرفة)) .

ولكن يوجد جزء من العالم الغربي - بسبب موقعه الجغرافي وتاريخه - متحرّر من التأثيرات المباشرة المسيحية القرون الوسطى ، متحرّر من العُقْد المستعصية لهذا العصر .. هذا الجزء من العالم الغربي كان دائم البحث عن طريق ثالث وقد اهتمدى إليه وهو طريق يحمل في ثناياه ملامح الطريق (الإسلامي) ، والدولة التي أعنيها هي إنجلترا وإلى حدّ ما أيضاً العالم الأنجلوسكسوني بصفة عامة .

(ولذلك) يعتبر ظهور إنجلترا والروح الأنجلوسكسونية في تاريخ الغرب أشبه بظهور الإسلام في تاريخ الشرق ، ولعلّ هذا هو ما عناه (شبنجلر) في مقارنته بين النبي محمد @ وبين ((كرومويل

((لقد رأى ((شبنجلر)) الشخصيتين في إطار نظرتة لتاريخ العالم كأنهما شخصيتان معاصرتان :
:

التوحيد بين الكنيسة الإنجليزية والدولة وكذا ظهور الإنجليز كقوة عالمية ، كل ذلك بدأ ((بكرومويل)) ، وكذلك بدأت بمحمد @ وحدة الدين والدولة وظهور القوة العالمية للإسلام ، وكان كلاهما مؤمناً متطهراً ومؤسساً لإمبراطورية كبرى .. ويبدو أن هذا أمر طبيعي جداً بالنسبة للعقل الإسلامي والعقل الأنجلوسكسوني ، ولكنه شديد الغرابة عند العقل الأوربي . لقد حطّم القديس ((لويس)) الدولة الفرانكوفونية ، أما في العالم الإسلام – فعلى عكس ذلك لم يحدث تقدّم سياسي أو اجتماعي إلا بصحوة دينية .

وَضَعَ ((بيكون)) بناء الفكر الفلسفي الإنجليزي على قاعدتين مستقلتين في أصلهما : الخبرة الباطنية التي تُؤدّي إلى استنارة الروح (أو الدين) ، والملاحظة التي تُؤدّي إلى العلم الصحيح (أو العلم التجريبي) .. ظلَّ ((بيكون)) ثابتاً على ثنائية كما فَعَلَ الإسلام ، فلم يحاول اختزال النظرة العلمية أو النظرة الدينية – إحداهما لحساب الأخرى . ، وإنما أقام التوازن بين النظرتين .. لهذا اعتبره الإنجليز أعظم تعبير أصيل عن الفكر الإنجليزي والمشاعر الإنجليزية ..

يقول ((عزت بيجوفيتش)) : ولكن تَبَقَّى حقيقة هامة عن ((بيكون)) لم يتم دراستها أو الاعتراف بها ألا وهي أن أب الفلسفة والعلوم الإنجليزية كان في حقيقة الأمر تلميذاً مُخلصاً للثقافة العربية الإسلامية ، وقد تأثّر ((بيكون)) تأثراً قوياً بالمفكرين المسلمين وعلى الأخصّ (ابن سينا) الذي اعتبره ((بيكون)) أعظم فيلسوف ظهّر بعد ((أرسطو)) ..

لنتأمل هذه الحقيقة : في القارة الأوربية – كقاعدة عامة – العالم التجريبي عادة ما يكون ملحدًا ، أما في إنجلترا فإن (جون لوك) أب المنهج التجريبي فقد جَعَلَ (الله) في مركز نظريته الأخلاقية ، ودافع عن الروادع الأخروية من ثواب وعقاب بحماس القسيس ، وأدمجها في بناء المبادئ الأخلاقية . يقول (جون لوك) : ((إذا كان كلُّ أمل الإنسان قاصرًا على هذا العالم ، وإذا كنا سَنَمْتَع بالحياة هنا في هذه الدنيا فقط فليس غريبًا ولا مجافياً للمنطق أن نبحث عن السعادة .. والمتعة .. دعنا نأكل ونشرب .. دعنا نتمتع بالأشياء التي تجعلنا سعداء ؛ لأننا غداً سنموت (بلا قيامة) .. ثم مَضَى (جون لوك) التجريبي الكبير يُفَصِّلُ في أدلته على وجود الله .

بينما في فرنسا الكاثوليكية لا يزال الصراع العنيد بين المدرسة الروحية والمدرسة الوضعية مستمرًا . حتى الاشتراكية الإنجليزية هي الأخرى من نوع مختلف عن نظيراتها في أوربا ، فالاشتراكية في أوربا مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة المادية والإلحاد ، بينما نستمع من منظمة حزب العمال البريطاني

اقتباسات من الكتب المقدسة (مثلما نسمعها من منبر الكنيسة هناك) على حدّ تعبير أحد المراسلين الصحفيين الفرنسيين مُعَبَّرًا عن انطباع الاندهاش .

يتحدّث ((عزت بيجوفيتش)) عن الدولة الكاثوليكية وعدم قدرتها على سلوك الطريق الثالث (أو الطريق الوسط) بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال كانت ولا تزال نماذج لمجتمعات حادة الاستقطاب .. فالرأي العام في هذه البلاد منقسم - بشكل غير قابل للتصالح - بين حركات وأحزاب يمينية مسيحية ويسارية ماركسية ، أما الوسط فإما أنه محدود جدًّا وإما قد تلاشى تمامًا .. في هذه البلاد تصطدم أكبر عقيدتين متصلبتين في التاريخ : الكاثوليكية والشيوعية .

يرصد ((عزت بيجوفيتش)) محولات حديثة للتقارب بين الكاثوليكية والماركسية ، ويلاحظ تنازلات من كلا الجانبين فيما يعرف باسم (التسوية التاريخية) ثم يُعلّق على ذلك بقوله :

((جميع هذه الظواهر التي التي ناقشناها ذات دلالة على توجُّهاتها ولكنها ليست إسلامًا ولا تُؤدّي الإسلام ؛ لأنها قسريّة متكلّفة غير متسقة مع نفسها وقاصرة . أما الإسلام فإنه يتضمّن رفضًا واعيًا للمُسلّمات الدينية والاشتراكية أحادية الجانب ، وينطوي على تسليم إرادي بمبدأ الثنائية ، ومهما يكن الأمر فإن ما رأيناه من تأرُّجٍ وانحرافات وتسويات قهرية ، إنما يُمثّل انتصارًا للحياة والواقع الإنساني على جميع الأيدولوجيات القاصرة على جانب واحد ، وهذا في حدّ ذاته يعدُّ انتصارًا للمفهوم الإسلامي .

التسليم لله :

للطبيعة حتمية تحكّمها ، وللإنسان قدره ، والتسليم بهذا القدر هو الفكرة النهائية العليا للإسلام . فهل القدر موجود .. وأي كَلٍ يتخذ ؟ دعنا ننظر في حياتنا لنرى ماذا تَبَقَّى من خُططنا العزيزة على أنفسنا .. وما بَقِيَ من أحلام شبابنا ؟ .. ألم نأتِ إلى هذا العالم بلا حول لنا ولا قوة .. ثم واجهنا تركيبتنا الشخصية ، ومُنَحْنَا قدرًا من الذكاء قلّ أو كَثُرَ ، وملامح جذابة أو مُنْفَرَة ، وتركيبية بدنية رياضية أو قزمية ، ونشأنا في قَصْرِ مَلِكٍ أو كوخ شَحَاذٍ .. في أوقات عصيبة أو زمن سلام .. تحت سلطان طاغية جبار أو أمير نبيل .. وفي ظروف جغرافية وتاريخية لم يتمّ استشارتنا بشأنها ! .. كم هي محدودة تلك التي نسميها إرادتنا .. وكم هو هائل وغير محدود قَدْرُنَا ! ..

لقد وُضِعَ الإنسان في هذا العالم وقُدِّرَ له أن يعتمدَ في وجوده على كثير من الحقائق التي لا يملك عليها سلطانًا ، وتتأثر حياته بعوامل قريبة منه وعوامل أخرى نائية عنه أكثر مما يتخيل ..

وكلما تَمَّتْ معرفتنا عن العالم تزايد إدراكنا بأننا لا يُمكنُ أن تَكُونَ أسياد مصائرنا . حتى مع افتراضِ أعظم تقدُّمٍ ممكنٍ للعلم ، فإن مقدار ما سيكون تحت سيطرتنا من عوامل لا يساوي شيئاً إذا قُورِنَ بالكمِّ الهائل من العوامل الخارجة عن هذه السيطرة ..

ويجتهد الإسلام في تنظيم هذا العالم عن طريق التنشئة والتعليم والقوانين التي شرَّعها الله ، وهذا هو مجاله المحدود أما مجاله الرحيب فهو التسليم لله ..

العدالة الفردية لا يمكنُ أن تكون كافية في إطار هذا الوجود المحدود ، إننا قد نتبعُ جميعَ القواعد والتعاليم الإسلامية التي من شأنها أن تَمْنَحَنَا السعادة في الدارين .. الدنيا والآخرة ، وقد نضيفُ إلى ذلك اتخاذَ جميع الإجراءات الطبية والاجتماعية والأخلاقية ، ولكن بسبب التشابكِ الرهيب للأقدار والرغبات والحوادث فإننا سنظلُّ نصاب في أجسامنا وفي نفوسنا بكثير من المعاناة ، فما الذي يُمكنُ أن يُعزِّيَ أَمَّا فقدت ابنها الوحيد ! وأي سلوى ممكنة لرجل أصيب في حادثة فأصبح مُعَوِّقاً قعيداً ! .

لابدَّ أن نكونَ على وَعْيٍ بطروفنا الإنسانية فنحن (مُتَلَبِّسون) بأوضاع مُعَيَّنة .. وقد أستطيع أن أعمل على تغيير هذا الوضع أو ذاك .. ولكن تَبْقَى هناك أوضاع لا تَقْبَلُ بطبيعتها التغيير .. وتَبْقَى أمامنا هذه الحقائق : إنني لا مفرَّ لي من الموت ، ولا بدَّ من أن أعاني وأن (أكدح) ، إنني ضحية الحظِّ .. إنني أتعزُّرُ دون رغبة مني في مشاعر الذنب .. ومن المؤكَّد أنَّ واجب الإنسان هو أن يبذلَّ جهده لتحسين كلِّ شيء بمقدوره أن يُحَسِّنَه ، ومع ذلك فسيظلُّ أطفال يموتون بطريقة مأساوية حتى في أكثر المجتمعات كمالاً .. والإنسان على أحسن الفروض قد يستطيع أن يُقلِّلَ من كمِّ المعاناة في هذا العالم ومع ذلك سَيَبْقَى الظلم والألم مستمرين ..

فهل يَسْتَسْلِمُ الإنسانُ لله أم يَتَمَرَّدُ عليه ! ؟ يقول ((عزت بيجوفيتش)) إجابة على هذا السؤال : الاعتراف بالقَدَرِ استجابة مثيرة للقضية الإنسانية الكبيرة التي تنطوي على معاناة لا مَرَدَّ لها .. إنه اعتراف بالحياة على ما هي عليه .. وقرار واعٍ بالتَحُمُّلِ والصمود والتَحُمُّلِ بالصبر ، وفي هذه النقطة يختلف الإسلام اختلافاً حاداً عن المثالية المصطنعة .. وذلك لأن التسليم لله هو ضوء يانع يخترقُ التشاؤم ويتجاوزه .

وكتيجة لاعتراف الإنسان بعجزه وشعوره بالخطر وعدم الأمن يجدُّ أنَّ التسليم لله في حدِّ ذاته قوة جديدة وطمأنينة جديدة ..

إنَّ الإيمان بالله والإيمان بعنايته يَمْنَحُنَا الشعورَ بالأمن الذي لا يُمكنُ تعويضه بأي شيء آخر . ولا يَعْنِي التسليم لله سلبية في موقف الإنسان كما يظنُّ كثيرٌ من الناس خاطئين ، ففي الحقيقة كلُّ

السلالات البطولية كانوا من المؤمنين بالقدر .. إِنَّ طاعة الله تستبعد طاعة البشر والخضوع لهم (لا إله إلا الله) إنها صلة جديدة بين الإنسان وبين الله ، ومن ثَمَّ بين الإنسان والإنسان .
 إنها أيضاً حُرِّيَّة يكتسبها الإنسان بمواصلة الإيمان بِقَدَرِهِ ، ومواصلة الكدح والجهاد سمتان إنسانيتان معقولتان ، وفيهما يتحقَّق الاعتدال والصفاء إذا نحن آمنّا بأن النتيجة النهائية ليست بأيدينا ، إنما علينا أن نَسْعَى ونَعْمَلَ .. أما الباقي فبين يدي الله .
 فلكي نُدْرِكَ حقيقة وجودنا في هذا العالم يَعْنِي أن نَسْتَسْلِمَ لله .. وأن نَتَنَفَّسَ السلام .. وألا يحملنا الوهم على تبديد جهودنا في الإحاطة بكلِّ شيء والتغلُّب عليه . علينا أن نَتَقَبَّلَ المكان والزمان اللذين أحاطا بميلادنا .. فالزمان والمكان قَدَرُ الله وإرادته ، والتسليم لله هو الطريق الوحيد للخروج من ظروف الحياة المأساوية التي لا حلَّ لها ولا معنى .. إنه طريق للخروج بدون تَمَرُّدٍ ولا قنوط ولا عدمية ولا انتحار ، إنه شعور بطولي (ولا أقول : شعور بطل) بل شعور إنسان عادي قام بأداء واجبه وَتَقَبَّلَ قَدَرَهُ .

إِنَّ الإسلام لم يأخذ اسمه من قوانينه ولا نظامه ولا محرماته ولا من جهود النفس والبدن التي يطالب الإنسان بها .. وإنما من شيء يشمل هذا كله وَيَسْمُو عليه .. من لَحْظَةٍ فارقة تنقذُ فيها شرارةٌ وعي باطني .. من قوة النفس في مواجهة مَحَنِ الزمان .. من التهيؤ لاحتمال كلِّ ما يأتي به الوجود .. من حقيقة التسليم لله .. إنه استسلام لله .. والاسم إسلام ! .
 وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..